كتاب الصناعتين
قراءة في خطاب المقدمة،وتحولات المصطلح

د. هاشم ميرغني الحاج إبراهيم صالح
قسم اللغة العربية - كلية العلوم والآداب بالمندق
جامعة الباحة

كتاب الصناعتين: قراءة في خطاب المقدمة،وتحولات المصطلح

د. هاشم ميرغني الحاج إبراهيم صالح

قسم اللغة العربية – كلية العلوم والآداب بالمندق
جامعة الباحة

ملخص البحث:

يقدم خطاب المقدمات في التراث العربي حقلا خصبا لاستيلاد المعنى، فمن جهة يمكن مقاربته نقديا باعتباره نصا مكتملا ومستقلا، ومن جهة ثانية يمكن مقاربته كنص مواز يخوض تناصا نقديا فعالا مع متنه، والمتون الأخرى. ويثير خطاب المقدمة بمجرد مقاربته حزمة من الأسئلة مثل: ما آليات اشتغاله ؟ كيف يؤسس علاقته مع المتن،والمتلقي: ما الذي يعد به وما آفاق تحقيقه ؟ كيف يؤسس علاقته مع المتون التي سبقته ؟ ما المنهج الذي يهجس به أو يعلنه ؟ كيف يحاول أن يحدد منظور القارئ للتعامل مع المتن عبر خطاب إيديولوجي جمالي بلاغي استحواذي موارب يسعى لمصادرة غيره من الخطابات؟ وغيرها من الأسئلة التي تتخذ من مقدمة أبي هلال العسكري لكتابه " كتاب الصناعتين "حقلا تطبيقيا لها.

وقد حاولت الدراسة الكشف عن الآليات المختلفة التي تبنتها المقدمة في صوغ خطابها، وعن طبيعة هذا الخطاب السجالية مع المتون النقدية السابقة والمتزامنة معه، كما كشفت من خلال تتبع وعود المقدمة في المتن الحرية الواسعة التي مارسها المتن في التعاطي مع المتون السابقة والمعاصرة، وأن ما تسترت عليه المقدمة في وعودها بالأصالة والمنهجية والانزياح عن متن الجاحظ، قد كشفه المتن في تضاعيف نسجه عندما انخرط بتواضع في قراءة واسعة لمتن قدامة بن جعفر " نقد الشعر " مارس من خلالها عليه آليات:النقل، والتوسع، والتأسيس.

الكلمات المفتاحية:

النص الموازي. متن النص. خطاب المقدمة. العسكري. الجاحظ.

إضاءة (١): "إن النص منظم ومتجه ليس باتجاه نهايته، ولكن باتجاه بدايته.إن السؤال الأساسي هو "من أين جاء هذا". وليس بأي شيء ينتهي"؟ "ي.لوتمان:بنية النص الفني " **إضاءة (٢):** قوم إستراتيجية النص على جملة من الألاعيب والإجراءات التي يمارس الخطاب من خلالها آلياته في الحجب والإقصاء أو في التبديل والنسخ...من هنا يقوم التعامل مع النص على كشف المحجوب، فما يحجبه القول ويشكل في الوقت نفسه شرط إمكانه أو بداهته المحتجبة، هو الذي يجعل القراءة الكاشفة ممكنة، وكلما ازداد الحجب ازداد إمكان الكشف وتنوعت احتمالات القراءة. "علي حرب: نقد الحقيقة " **إضاءة (٣):** إن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب، وهي: الغرض والعنوان والمنفعة والمرتبة وصحة الكتاب، ومن أي صناعة هو، وكم فيه من أجزاء، وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه" "المقريزي:المواعظ والاعتبار "

المقدمة:

تندرج المقدمات تحت العنوان العريض للنص الموازي paratext الذي يحيط بمتن النص،والذي أسَّسَ له العالِم الأدبي جيرار جينيت،ومضى بعد ذلك ليكتسب سيرورته وفعاليته في التحليل النقدي بحيث أصبح من العسير مقاربة متن النص دون اصطحاب حوافه وأهدابه وعتباته،وبحيث كادت تتحول دراسة العنوان مثلا ــ الذي يحتل مكانه في الصفوف الأولى لعتبات النص ــ إلى علم يؤسس نظرياته ومنهجه ويكتسب فعاليته التطبيقية النافذة فيما يعرف بعلم العنونة Titrologie وهو العلم الذي أسهم في تأسيسه جيرار جينيت،وفيليب لوجان،وج. دوبوا،وم. مارتان بالتار الذي كشف بلعابد في حفره الدؤوب في ذاكرة المصطلح أنه "أول من استعمل مصطلح المناص[النص الموازي] بالدقة المنهجية والسعة المفاهيمية اللتين سيعالجه بهما جيرار جينيت في كتابه"عتبات"[1]،أما بقية مكونات النص الموازي مثل المقدمة،والإهداء، والغلاف،وكلمة الناشر... إلخ فلا زالت تسعى إلى تمتين خطابها النظري والتطبيقي.

وقد سبق للباحث في دراسة سابقة عن العنوان[2] أن مثَّل بيانيا لتأسيس جينيت للنص الموازي بالشكل:

النص الموازي

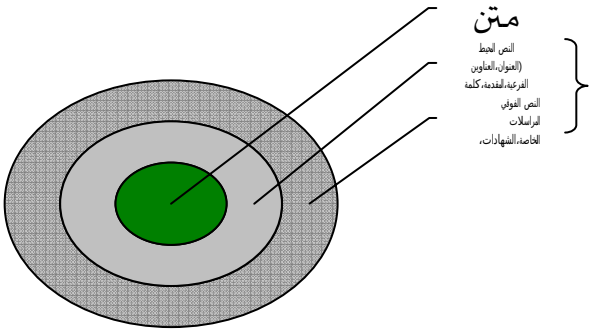

١ عتبات: جيرار جينيت من النص إلى المناص، عبد الحق بلعابد، الدار العربية للعلوم ، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ص ٣٠.

٢ انظر في ذلك :بنية الخطاب السردي في القصة القصيرة ، هاشم ميرغني، مطابع العملة المحدودة ، الخرطوم ، ٢٠٠٨، ص٦٥.

وبذا فإن المقدمة تندرج تحت النص المحيط الذي يضم أيضا: العنوان،والعناوين الفرعية والاستهلال،والإهداء،والتصدير،وكلمة الناشر،والغلاف،واسم دار النشر..إلى آخره،بل إنها تتقدم عليها بوصفها نصا مكتملا،أو أكثر اكتمالا منها حتى ليمكن دراستها على مستويين:

- مستوى القراءة الداخلية CLOSE READING التي تنغلق عليها متفحصة اكتمال خطابها واستقلاليته النصية عن المتن.
- مستوى قراءتها كنص مواز يخوض غمار حوار داخلي خصب مع المتن،ومع النصوص المحيطة الأخرى: العنوان،الاستهلال، الإهداء،وغيرها.

وعلى الرغم من الجهد الاستثنائي العظيم لجينيت وغيره فيما يشبه تأسيس علم للمقدمة على غرار علم العنونة ؛ فإن الحفر بتربة المقدمة التراثية العربية يستلزم أيضا استثمار معاول مغايرة لكشف آليات اشتغالها،وذلك لطبيعة ارتباط المقدمة التراثية العربية بجذرها المعرفي المتمثل هنا بالدين،وهو ما جهد المفكر المغربي عباس أرحيلة في تأسيسه عبر دراسته القيمة عن "مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع " إذ رأى أن قيمة ديباجة الكتاب في التراث الإسلامي لاتنحصر في كونها تعمل ــ من خلال طريقة انتظامها وأسلوب صياغتها ــ على برمجة فعل القراءة وتوجيهه فحسب،ولكنها تروم ـ أيضا وأساسا ـ تطهير نفس القارئ وتخليص فكره وخياله من الشوائب المادية والانشغالات اليومية التي تتعارض مع قدسية العلم،والتي قد تحول دون تمثل مضامين الكتاب،فالعلم عبادة.."[1] ؛ ولذا فإن المقدمة تستمد روحها، وصياغاتها من الدين، وذلك بسبب أن دائرة العربية التي يشتغل عليها مجمل خطاب التأليف العربي تتمركز في الدين كما يتجلى في مجمل "مقدمات " التراث العربي،وقد استقصى أرحيلة في كتابه آليات الخطاب العربي في تأسيس المقدمة على الصعيدين النظري والتطبيقي ابتداء من مطالع القصيدة الجاهلية وافتتاحيات الخطب حتى التحولات العميقة التي أحدثها الإسلام فيها بنيةً ودلالةً ؛ إذ يبنى استهلال المقدمة في التراث العربي الإسلامي

---

١ مقدمة الكتاب في التراث العربي وهاجس الإبداع ، عباس أرحيلة، موقع عباس أرحيلة بالشبكة الدولية للمعلومات: http://rhilaabas.jeeran.com ، حيث تجد أيضا المزيد من دراساته للمقدمة في التراث العربي.

على عناصر ثابتة ذات جذر إسلامي مباشر،هذه العناصر التي تتمثل في:البسملة،والحمدلة،والصلاة على النبي وآله،والبعدية، أي قول "أما بعد"،وقد ربط أرحيلة ذلك بعدد من النصوص الدينية التي تفرض هذه العناصر،مثل قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ (الإسراء:١١١)، وقوله تعالى ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النمل: ٥٩)،واقتداء بأمر النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة:" كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع "،واتباعا له في ابتداء الخطب بالحمد[1]،ولكن هذه البنية الدينية لاتستغرق ـ في رأينا ـ كامل ما يهجس به خطاب المقدمة، ولا تستنفد آليات حوارها المعقدة مع المتن والقارئ كما سنرى في قراءتنا لمقدمة "الصناعتين".

مشكلة الدراسة وأهدافها :

تحاول الدراسة من خلال قراءتها لخطاب مقدمة العسكري في " كتاب الصناعتين " الذي سنشير إليه لاحقا بـ" الصناعتين ":

١. الكشف عن الآليات المختلفة التي تشتغل عليها المقدمة في صوغ خطابها .
٢. فحص طبيعة الخطاب السجالية الذي تتبناها المقدمة، والقيم التي تحتضنها، والعلامات اللغوية التي تكشف عن ذلك.
٣. تتبع حوار المتن مع المتون السابقة والمتزامنة معها التي أشارت إليها المقدمة ، لاسيما متن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الذي يمثل في رأي الدراسة مركز تهجس المقدمة، ونولها المستتر الذي نسجت عليه مقولاتها.
٤. تقصي الوعود التي بذلتها المقدمة، ومدى تحققها في متن الكتاب، وخاصة وعدها الرئيس بالأصالة والمنهجية والابتكار والانزياح عن متن الجاحظ ومنهجه.

أسئلة الدراسة:

تحاول الدراسة الإجابة عن حزمة من الأسئلة التي تثيرها المقدمة بمجرد مقاربتها نقديا مثل: ما آليات اشتغال خطاب المقدمة ؟ كيف تؤسس علاقتها مع المتن،والمتلقي:

---

١ المصدر السابق، نفس الصفحة.

ما الذي تعد به وما آفاق تحقيقه ؟ كيف تؤسس تناصها النقدي مع المتون التي سبقتها ؟ ما المنهج الذي تهجس به أو تعلنه ؟ كيف تحاول أن تحدد منظور القارئ للتعامل مع المتن عبر خطاب إيديولوجي جمالي بلاغي استحواذي موارب يسعى لمصادرة غيره من الخطابات ؟ كيف نفصل الخطاب الدعائي والإعلاني الذي يمكن أن تنزلق إليه رغما عنها عن خطابها العلمي ؟ ما آليات تحولها ـ أحيانا ـ صدفة فارغة يكذِّبها متن النص ؟كيف يمكن لها أن تفتح أفق المتن أو تغلقه ؟ ما طبيعة خطابها الديني /الأيديولوجي التي تهجس به وتحور به منظورها للحقيقة ؟

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية هذه الدراسة من شح الدراسات التي تناولت خطاب المقدمات في النقد العربي، ولاسيما مقدمات التراث العربي، ويمكن لمثل هذه الدراسة أن تكشف الكثير عن خصوبة هذا الخطاب الذي ينضوي تحت النص الموازي،وطبيعة حواره مع متن النص،كما يمكن لها أن تكشف عن التناص النقدي الذي يشتغل في سياقه خطاب المقدمات الذي يشتبك عادة في حجاج نقدي ــ مستتر أو ظاهر ــ مع المتون السابقة والمتزامنة معه،الحجاج الذي يزداد خصوبة بالمتون التالية التي تسعى،غالبا،لتحوير المفاهيم السابقة لها أو نفيها.

حدود الدراسة:

انتخبت الدراسة المقدمة التي كتبها أبو هلال العسكري (ت ٤٠٠هـ ؟) لكتابه "كتاب الصناعتين " مختبرا نقديا لقراءة خطابها،وآليات تشكله،وحواره النقدي مع: المتلقي، والمتن، والمتون الأخرى،وآفاق تحقق وعودها بمتن النص، وقد اختارت "البديع " بوصفه أكبر أبواب الكتاب لتقصي هذه الوعود.

أولا: أيديولوجيا خطاب المقدمة

جريا على سنة فاتحة المقدمة التراثية استهلَّ أبوهلال مقدمته ، فافتتحها بحمد الله والثناء عليه دامجا ذلك مباشرة بغرضه من هذا التصنيف فيما يعرف ببراعة الاستهلال،مبينا أن الغاية الأولى من مثل هذه التصانيف في علوم النقد والبلاغة هي الدين،يقول:"وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة،وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف،وبراعة

التركيب،وما شحنه به من الإيجاز البديع،والاختصار اللطيف.....إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها،وتحيرت عقولهم فيها"[1] ؛ فعلم البلاغة أول علوم العربية التي تمثل دائرة واسعة قطرُها هو القرآن الكريم ؛ فقد قدَّم القرآن للعرب حقلا لغويا باهرا للتفسير والتأويل والنحو والصرف والبلاغة والألسنية والمعجمية،وهو ما عبَّرَ عنه الثعالبي (٣٥٠ ـ ٤٢٩هـ) بذلك القول الذي يبدأ بتفضيل العرب على من سواهم من الأمم،وينتهي بجعل العربية حقلا لحرث نعيمي الدنيا والآخرة:" الإسلام خير الملل،والعرب خير الأمم،والعربية خير اللغات والألسنة،والإقبال على تفهمها من الديانة،إذ هي أداة العلم،ومفتاح التفقه في الدين،وسبب إصلاح المعاش والمعاد"[2]، وهو المفهوم الذي تم تمثله في مجمل الخطاب النقدي العربي،وها هو أبوهلال ــ في محاولة لمد الصلة بين البلاغة والدين إلى أقصاها ـ يرى أن علم البلاغة يأتي مباشرة بعد التوحيد ؛ فيقول في مقدمته إن"أحقّ العلوم بالتعلّم،وأولاها بالتحفّظ بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه علم البلاغة،ومعرفة الفصاحة،الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى،الناطق بالحق،الهادي إلى سبيل الرّشد،المدلول به على صدق الرسالة... فينبغي من هذه الجهة أن يقدّم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله تعالى ومعرفة عدله والتصديق بوعده ووعيده..."[3].

والإشكال يمضي لأبعد،وذلك لأن أبا هلال يمضي لما يشبه فكرة ربط اللغة بالعرق ؛ فيرى "أنه قبيح بالفقيه المؤتم به ، والقارئ المهتدي بهديه، والمتكلم المشار إليه في حسن مناظرته.....وبالعربي الصليب والقرشي الصريح أن لا يعرف إعجاز كتاب الله إلا من الجهة التي يعرفه بها الزنجي والنبطي وأن يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبي"[4]، فهذه الإشارات القوية للعربي الصليب والقرشي الصريح اللذين يقابلهما بالزنجي والنبطي

---

١ كتاب الصناعتين:الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة، ١٩٥٢، ص ١. وسنشير إليه لاحقا بـ" الصناعتين " اختصارا .

٢ فقه اللغة وسر العربية، أبومنصور الثعالبي، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، الطبعة الثالثة، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، القاهرة، ١٩٩٨، مقدمة المؤلف.

٣ الصناعتين:٢/١.

٤ الصناعتين: ٢/١.

واقتران الأخيرين بالجاهل الغبي ـــ التي يمكن التخفيف منها بعبارات الفقيه المؤتم به،والقارئ المهتدي،والمتكلم حسن المناظرة،وذلك في شبهة احتمال لا عروبتهم عرقيا ـــ تمثل بذور أفكار متغلغلة بأن اللغة ـ محض اللغة ـ مقصورة عليهم،وكأن تعلم العربية وإتقانها والنفاذ إلى أسرارها نعمة مخصوص بها العرب رغم اصطدام ذلك ببداهة حقيقة تاريخية تتمثل في أن أكثر من حمل لواء العربية عبر تاريخها لم يكن "عربيا صليبا ولا قرشيا صريحا "،بل كانوا عرقيا من "الأعاجم" إذا آثرنا استخدام هذا المصطلح،بل إن أبا هلال نفسه لم يكن عربيا خالصا أو قرشيا صليبا،ففي بعض أشعاره ما يشير إلى أصله الفارسي،وإلى ذلك ذهب بعض الباحثين[1]،فهل كان الرجل يقدم بدفاعه المستميت هنا عن العربي الصريح والقرشي الصليب شهادة على خضوعه لسلطة العرق العربي الذي يكتب تحت وطأة هيمنته الظاهرة والمستترة،الهيمنة التي تم غض النظر عن كشف تجلياتها التعسفية في خضم الحرب الشعواء ضد الشعوبية،ومغالاة الأخيرة في الغض من شأن العرب ؛ إذ يكفي أن نلقي نظرة على المجتمع العربي قبيل استيلاء "الأعاجم" على مفاصل الدولة،لنرى كيف نظر العرب إلى الشعوب الأخرى "نظرة السيد إلى المسود،ومن أجل ذلك كانوا لا يكنون الموالي بالكنى،ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب،ولا يمشون في الصف معهم،ولا يقدمونهم في الموكب،وإن أحضروا طعاما قاموا في رؤوسهم،وإن أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه على طرف الخوان لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب.وكانوا يقولون لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة:حمار أو كلب أو مولى. وإذا مات مولى يقولون هو مال الله يأخذ ما يشاء،ويدع ما يشاء...وكانوا لا يزوجونهم العربيات الحرائر،وإن بنى أحدهم بواحدة منهن فرقوا بينها وبينه،وكانوا لا يصلون وراءهم،ولا يدخلونهم مساجدهم،ولا

---

١ يقول ماجد الذهبي في مقدمة تحقيقه لكتاب " أسماء بقايا الأشياء " لأبي هلال:" وكان أبو هلال فارسي الأصل، وقد افتخر بأصله هذا عندما قال عن نفسه :

له شرف من آل ساسان باذخ وذكر بأطراف البسيطة شائع

وقال أيضا:

وقد نمتني أمجاد جحاجحة من نجل ساسان تزهو نجل ساسان

هم الكواكب في أطراف داجية أو العنان على أثباج أغصان

أسماء بقايا الأشياء على نسق حروف المعجم، أبو هلال العسكري، تحقيق ماجد الذهبي، مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت ، ١٩٩٣، ص ٩.

يسمحون لهم بالصلاة على الجنائز إذا حضر بعض العرب،وإن كان من حضر غريرا،وكانوا يسخرونهم عنوة،فقد كانت العرب إلى أن قامت الدولة العباسية إذا أقبل العربي من السوق،ومعه شيء،فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه فلايمتنع،وكان إذا لقيه راكبا،وأراد أن ينزل فعل... إلخ إلخ"[1]،وانظر كيف يتساءل ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ)مثلا مستنكرا زواج العباسة من جعفر البرمكي:" كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم... وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي العجم على بعد همته وعظم آبائه؟"[2]، ولذا فإن مفردات العسكري:" العربي الصريح "و" القرشي الصليب"،وكذلك "الزنجي " و"النبطي" الممثلين هنا لغير العربي لم ترد عبثا،إنما تحت تأثير مناخ طاغ يتنفس فيه العسكري هيمنة عنصري: "العرب" و "العربية"،الأول بوصفه جنسا "خاصا مميزا" أرضه هي مهبط النبوة،والثاني بوصفه لغة هي أشرف اللغات: كيف لا وقد خصها الله بتنزيل رسالته ؟ ولذا لم يكن غريبا أن يقرر الجاحظ بثقة ــ حين كان منغمرا بيمٍّ حملته الشعواء على الشعوبية ــ ويكرر ذلك غيره بصيغ مختلفة أن "البديع مقصور على العرب ومن أجله فاضت لغتهم على كل لغة،وأربت على كل لسان"[3]،وهي المقولة التي مارست تأثيرا طاغيا على اللاوعي العربي ؛ إذ يكاد يغطي البديع هنا جلَّ فنون البلاغة المختلفة،فلم تكن الفروق بين أقسام البلاغة المختلفة من بيان ومعان وبديع قد اتضحت حينها،وبذا فإن البلاغة،أي الإبداع الأدبي،مقصور على العرب محرَّم على من سواهم من أصحاب اللغات الأخرى.

وربما كان صعبا داخل الثقافة العربية نفسها وقيمها الحاكمة قراءة هذه الرؤية للـ"عربية"،لكن أي قراءة بمنظور إنساني أوسع،أو بمنظور مختلف يمكن أن تكشفها،ولاسيما من منظور العلاقة بين الخطابين السلطوي والمعرفي، واشتباكهما المرير،وقد تعلمنا مع ميشيل فوكو(١٩٢٦ ــ ١٩٨٤) في درسه القيم عن جدلية السلطة /المعرفة كيف يمكن للسلطة بمعناها الواسع أن تتلبس بالمعرفي والاجتماعي،

---

١ الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، د.ت ، ص ١٦٤.
٢ المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، حققها وقدم لها وعلق عليها عبد السلام الشدادي، الطبعة الخامسة، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، ٢٠٠٥، ص ٢٢/ ٢٣.
٣ البيان والتبيين، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون الطبعة السابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨، الجزء الرابع، ص ٥٥/ ٥٦.

وتخترقه بحيث تغدو "بمثابة شبكة منتجة تمر عبر الجسم الاجتماعي كله أكثر مما هي هيئة سلبية[أي منفصلة] وظيفتها هي ممارسة القمع"[1]،كما تعلمنا مع آلفن توفلر المناورة الواسعة التي تتبعها "السلطة التلاؤمية" لتتمكن من التسلل لقلب المعرفي بحيث تصوغ نظامه الأخلاقي دون أن تدرك الذات لاعقلانيته،ودون أن تعي بمدى استلابها وخضوعها للسيطرة،بحيث يتحول الخضوع "مظهرا طبيعيا للسلوك المقبول "[2] يلائم فيه الفرد بين ذاته والسلطة ليس لصالحها فحسب،إنما للتماهي المطلق معها،حيث من يحدد الصواب هو من يملك الخطاب حسب فوكو،وحينما تغدو هذه الذات كاتبة ـ مثلما هو الحال هنا عند العسكري،أو الجاحظ أو الثعالبي أوغيرهم ـ فإن الإشكال يزداد حدة،إذ يغدو حقل الكتابة باتساعه مسرحا تعيد فيه الكتابة توزيع مواقع السلطة وأدوائها تحت غطاء الجمالي وبأدوات المعرفي،وتحت قناع البراءة هذا لا نستطيع أن نلمح السلطوي في أكثر تمظهراته بؤسا: التمييز العنصري.

هذا هو الإشكال الأول الذي تفتحه المقدمة منذ بدايتها: الخطاب الأيديولوجي المضمر في التباسات المعرفي والجمالي والمرحَّل إليه من قبل سلطة تملك القدرة على تحديد اتجاهه،ولذا فإن خطاب المقدمة يمضي لأبعد مما اقترح الحجمري من إجابات لسؤال:"لماذا مقاربة المقدمة؟"،إجابات مثل:

- الاعتبار التصديري والافتتاحي الذي تمتلكه المقدمة مما يمنحها سلطة توجيه القراءة.
- احتواء المقدمة على تصور المؤلف للكتابة، وغايته من التأليف، وهذه السمة المميزة تعين شكل الأطروحة التي يبرزها متن الكتاب.
- تحديد أدوات المؤلف الإجرائية في تمظهرات اصطلاحية لها أهميتها الخاصة في القراءة والتحليل [3].

---

١ نظام الخطاب، ميشيل فوكو، ترجمة محمد سبيلا، الطبعة الثانية، دار التنوير للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ص ٦٣/ ٦٤.

٢ انظر في ذلك: تحول السلطة، آلفن توفلر، ترجمة فتحي بن شنوان وعثمان نبيل، الدار الجماهيرية للنشر، مصراتة، ليبيا ١٩٩٢، ص ٤٦ وما بعدها.

٣ عتبات النص البنية والدلالة، عبد الفتاح الحجمري، ط١، منشورات الرابطة، الدار البيضاء المغرب، ١٩٩٦، ص ٤٠/ ٤١.

فقراءة خطابها إذ ينفتح تأويليا لفض التباساتها يمكن أن يبتدئ مما اقترحه هنري ميتران في قراءته للمقدمة بوصفها خطابا تثقيفيا تنويريا يمتلك جميع خصوصيات هذا الخطاب كـ:

- "الإخبار بماهية الأدب،وبكيفية خاصة عن النوع الأدبي الذي كتب له الخطاب المقدماتي،ثم إضاءة موقعه وتسييج نظامه البلاغي.
- تنظيم عرض البراهين والحجج لإبراز مكامن الشعرية في العمل الشعري الذي يتناوله الخطاب المقدماتي.
- تغييب السؤال واقتراح أجوبة لمشاكل يعتقد أو يتوهم أنها وجدت طريقها إلى الحل في العمل الذي يتحدث عنه.
- تحابك فن الإقناع في الخطاب المقدماتي واستعمال العناصر المصوغة والإنجازية لتشكيل إستراتيجية تعليمية.
- انطلاقه من عقيدة مسبقة وسعيه إلى الإقناع بها.
- تحوله غالبا لخطاب سجالي.
- امتلاك سمة ثلاثية هي: التعليمية والسجالية والتربوية، وبذلك يتلاقى مع البيان manfesto وتهيمن عليه صفة الاختزال والمساعدة حسب جاك دريدا الذي ينعته بـ"خطاب مساعدة " و"رغبة في القول" و"استباق خطابي"[1] ؛

فالمقدمة لا تقدم نفسها نصا شفافا يتبرع بتقديم إجاباته الفورية عن أسئلتنا المباشرة،بقدر ما تتخفى باعتبارها خطابا حجاجيا ملتبسا يستبق القارئ ليشتغل كإمكانية للحجب والمصادرة والمناورة ؛ فهي لا تتقدم مفسحة الطريق للقارئ لرفض خطابها أو تقبله،إنما تضمر سجاليتها وتربويتها تحت غطاء معرفيتها وحيادها،أي تتقدم بوصفها خطابا معرفيا يتقنع ببراءته،ولذا انتبه القدامى مثلا إلى اعتزالية الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) المضمرة في مقدمته التي استهلها بالقول "الحمد لله الذي جعل القرآن..."

---

١ عن الخطاب المقدماتي في الدواوين الشعرية: ملاحظات أولية لمقاربة نطرية، أحمد بلحاج آية وارهام، موقع أواب الخاص بالناقد والشاعر وارهام: www.awabbelhaj.jeeran.com أخذه من عبد الجليل الأزدي "مقدمات نظرية عن الخطاب المقدماتي "، مجلة "فضاءات مستقبلية " العدد ٤، مايو ١٩٩٧، الدار البيضاء، ص ١٤.

منتبهين إلى أن مفردة "جعل" هنا ليست بريئة كما تدعي متمسحة بظاهر معناها اللغوي،ولكنها ذات حمولة أيديولوجية تتجاوز معناها اللغوي لتتصل بفكر المعتزلة ورأيهم في خلق القرآن حيث "جعل" هنا بمعنى "خلق". ولذا تمت مصادرة المقدمة لاحقا من خصومها إما بحذفها، أو تحوير "الذي جعل القرآن" إلى "الذي أنزل القرآن".أما بمتن الكتاب الذي قاوم المصادرة فقد انسرب الاعتزال بتضاعيف التفسير ؛ ولذا اشتغل بعض العلماء القدماء في "الكشاف" باعتباره حقلا أيديولوجيا مضمرا للاعتزال، مثل الإمام البلقيني (ت ٨٠٥ هـ) الذي قال عنه "استخرجت من الكشاف اعتزالا بالمناقيش،منها أنه قال في قوله تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (آل عمران: ١٨٥): وأيُّ فوز أعظم من دخول الجنة؟! أشار به إلى عدم الرؤية "[1]. وابن تيمية (٧٢٨هـ) الذي قال عن أصول المعتزلة:" وهذه الأصول حشا بها الزمخشري كتابه بعبارات لا يهتدي أكثر الناس إليها[2] "وخصص ابن المنير الأشعري(٦٨٣هـ) كتابا كاملا هو "الانتصاف" جعله على هامش الكشاف لكشف خطابه المضمر.

ثانيا: سجالية الخطاب الاستباقي

لا تغادر مقدمة "الصناعتين" التباسها حتى وهي تدلف لحقل دافعها العلمي،وهو دافع متشعب يبدأ برؤيتها أن البلاغة تسلِّم صاحب العربية ــ أي المشتغل بعلوم العربية ــ مفاتيح المعيار النقدي السليم الذي يستطيع عبره أن يميز بين الجيد والرديء من الكلام،وبدون هذا المعيار "تعفو جميع محاسنه، وتعمي سائر فضائله" وبدونه تزلق قدم العالِم في اختياراته وتفضيلاته،ولذا تنبِّهُ بجملة مسجوعة تسهم بإيقاعها في تقوية المعنى وتضخيمه إلى ما يسميه "تخليط الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام". وبصيغة التعجب أيضا:"وما أكثر من وقع من علماء العربية في هذه الرذيلة"،ومن هؤلاء الأعلام هم: الأصمعي (ت ٢١٦هـ)،والمفضل (ت ١٦٨هـ) ؛ فالأصمعي اختار قصيدة المرقش "هل بالديار أن تجيب صمم"، والعسكري لا يعرف " على أي وجه صرف اختياره إليها،وما هي بمستقيمة الوزن،ولا مونقة الروي،ولا سلسة اللفظ،ولا جيدة السبك،ولا متلائمة النسج ".

---

١ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، دار الفكر، لبنان، ١٩٩٦، ط١، الجزء الثاني، ص ٥٠١.

٢ فتاوي ابن تيمية، ابن تيمية، مجمع الملك فهد، الرياض، ١٩٩٥، الجزء الثالث عشر، ص ٣٨٧.

أي بكلمة واحدة: مفتقرة لأي مزية بلاغية ينبغي الاختيار على أساسها،مما يثير تساؤل القارئ المفترض حول علم الأصمعي بالوزن والبلاغة،وحول ذوقه الأدبي أيضا،أما المفضل فأخذ عليه العسكري اختياره للغريب و "الغريب لم يكثر في كلام إلاّ أفسده،وفيه دلالة الاستكراه والتكلف"،وهذا مقياس بلاغي سيفرد له المتن صفحات قادمات،ويوثق عراه بتعريفات البلاغة التي يحشدها أبو هلال، ويرتكز أغلبها على سهولة اللفظ، ويسره، وسلاسته، ونفي وحشيه وغريبه.

أما الأديب فحاجته إلى هذا العلم أكبر، لأن الأمر هنا أمر إنشاء لا اختيار ؛ فهو إذا فاته هذه العلم "مزج الصّفو بالكدر،وخلط الغرر بالعرر،واستعمل الوحشي العكر..." أي أنها ـ أي البلاغة ـ مركز السلطة التي يستمد منها الأديب مشروعيته في الكتابة،وعلم البيان بتعبير ابن الأثير بعده (٦٣٧هـ) بمنزلة "أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام "، وهو ما ألقى بثقله على الكتابة الأدبية التي قيدها البلاغيون بأمراس كتان إلى تفضيلاتهم في المجاز والبديع محولين هذه الكتابة رويدا رويدا إلى مصكوكات ذهبية لامعة لا تنبض بحس.

السؤال الآن إذن: إذا كان "الخطاب المقدماتي يمكن اعتباره موقعا تداوليا ينعقد فيها اللقاء بين الكاتب والقارئ،ويتم فيه البحث عن بعض الخصائص والتحليلات التي يحملها هذا الخطاب الذي يهدف إلى بناء ميثاق القراءة،وتأطير القارئ "[1]، فكيف استطاع أبو هلال تشغيل هذا الموقع التداولي الاستباقي لبناء ميثاقه مع القارئ؟ ما العلامات التي اشتغل عليها ليس لتأطير القارئ فحسب،بل لجره لموقف المسلِّم المذعن بوساطة خطاب سجالي عنيف يزعم فيه أن الأديب ـ شاعرا كان أم ناثرا ـ إذا "فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر،وخلط الغرر بالعرر،واستعمل الوحشي العكر،فجعل نفسه مهزأة للجاهل،وعبرة للعاقل فدلّ على سخافة عقله،واستحكام جهله، وضره الغريب الذي أتقنه ولم ينفعه،وحطّه ولم يرفعه،لمّا فاته هذا العلم وتخلّف عن هذا الفن"[2] ؟

١ الخطاب المقدماتي في الدواوين الشعرية:مصدر سابق، نفس الصفحة.
٢ الصناعتين:٢٠.

العلامات التي تشتغل هنا يمكن إجمالها في:

(١) اللغة القوية التي استخدمها في مجمل خطابه السجالي لوصم الأدباء والعلماء،فمن فاته هذا العلم كما يقدمه أبو هلال يكون "مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل" ويدلل على "سخافة عقله" و"استحكام جهله"،وتطارده متوالية الأفعال "ضره" و"حطه" و"تخلف"،وهي لغة تحمل في ثناياها تهديدا قويا لمن يخالف معاييره فيقع في التخليط ويصبح مهزأة وعبرة،أي تطيح به ليس خارج الأدب فحسب،بل خارج دائرة الإنسانية العاقلة.

(٢) إنَّ إعادة النظر في أكثر ما اختاره علماء العربية واستحسنوه يفضي بنا إلى نتيجة مختلفة ترى فيما اختاروه "كلاما فجّا غليظا،ووخما ثقيلا،لاحظَّ له من الاختيار" في رأي المقدمة،وعلى هدى معايير البلاغة التي سيبينها المتن يمكن إعادة الاعتبار لأبيات غابت أسرار شعريتها عن النقاد ؛ فإذا كان العتبي يرى أن مثل قول جرير:

إن العيون التي في طرفها مرض قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له وهن أضعف خلق الله إنسانا

"من الشعر الذي ليس له كبير معنى،وإنما يستحسن لجودة لفظه"،فإن أبا هلال يجابهه بالقول:"وأنا لا أعلم معنى أجود ولا أحسن من معنى هذا الشعر" دون أن يكلف نفسه ـ في المقدمة ـ إيضاح هذا المعنى،ولكنه يعود في متن الكتاب لأمثال هذا البيت ليشير إلى جماليته الشعرية المنبثقة من لغته،أي لمعناه الشعري المندغم في شكله،لا المعنى العام المنتزع من القراءة العجلى لمحتواه فـ "ليس الشأن في إيراد المعاني... وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه،مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف،وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت"[1] كما يقول في صياغة أخرى لنظرية الجاحظ حول المعاني الملقاة على قارعة الطريق والتي وضعت حجر الأساس لمسألة "أدبية" النص.

---

١ السابق:٥٧/٥٨.

هذه العلامات التي تمثل ملامح حملة يشنها أبو هلال على "أعلام العربية" الذين لم يهتدوا بمعايير النقد والبلاغة مثله يمكن مد جذورها البعيدة لتربة ابن سلام (ت ٢٣٢هـ): "للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات"[١]، كما يمكن مد جذرها بتربة قدامة (٣٣٧هـ) الذي أوضح في مقدمته لـ"نقد الشعر" أن "علم جيد الشعر من رديئه "علم خارج عن علم الغريب والنحو وأغراض المعاني والعروض والقافية[٢]، ولكن جذرها المباشر يستقى ماءه من مقولة الجاحظ (ت ٢٥٥هـ):" طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه،فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه،فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب،فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب: كالحسن بن وهب،ومحمد بن عبد الملك الزيات[٣]"،وهي المقولة التي فرَّقت بشكل حاسم بين علم الشعر ونقده وتذوقه،وبين علوم أخرى تحوَّم بالقرب منه مثل علوم النحو، واللغة، والتاريخ، وغيرها، وذلك بالنظر إلى جمالية الشعر وإبداعيته،أي بالنظر إلى ما يجعله خطابا يزدهي بنعمة انزياحه عن غيره من أنواع الخطاب،فعلم الشعر خارج في جوهره عن دائرة النحو واللغة وغيرها،وهي المقولة التي أمعن العسكري ـ في رأينا ـ النظر فيها وهو يكتب مقدمته،وأعاد صياغتها بهذا التحوير الذي يبعدها عن الأصل الذي يظل رغم ذلك يتراءى واضحا خلفها،لقد عملت المقدمة هنا حسب ميتران على "تغييب السؤال واقتراح أجوبة لمشاكل يعتقد أو يتوهم أنها وجدت طريقها إلى الحل في العمل الذي يتحدث عنه "[٤]،وهو السؤال الذي أجاب عنه الجاحظ من قبل بالتفرقة بين علم الشعر وغيره،وأعادت المقدمة طرحه من جديد ـ بعد إخفاء أصله ـ بزعم أن متن الكتاب هو الوحيد القادر على الإجابة عنه.

---

١ طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني ـ جدة ، ١٩٨٠، الجزء الأول، ص ٥.

٢ نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق د.محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت، المقدمة ص ٦١ / ٦٢.

٣ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨١، الجزء الثاني، ص ١٠٥.

٤ الخطاب المقدماتي في الدواوين الشعرية، مصدر سابق ، نفس الصفحة.

ثالثا: سجالية التعاطي مع المتون السابقة

ينبثق مما سبق،أي بالخطاب السجالي للمقدمة،طبيعة حوار المقدمة مع المتون السابقة لمتنها الذي يمكن وضعه تحت عنوانين مشتبكين: هاجس الريادة عند أبي هلال، ورؤيته لما كتب قبله، إذ تكشف المقدمة عند قراءتها مع مقدمات أخرى لأبي هلال عما هو مشترك وأساس في جذر خطابه النقدي: هاجس الريادة ؛ ففي كل مقدماته مثَّل همٌّ ارتياد بقاع بكر في التأليف مركزا لتهجُّسه النقدي ؛ ففي مقدمة كتابه "المعاني" ذكر أنه "لجأ إلى جمع أبلغ ما جاء في كل فن لأنه لم يجد كتابا مؤلفا وكلاما مصنفا يجمع فنونه،وأن ما تفرق منه غير مقنع للراغب[1]،وفي مقدمة الأوائل ذكر أنه لم يجد كتابا جامعا في " الأوائل " يحوي ضروبها ويشرح وجوهها وأبوابها "فعملت كتابي هذا مشتملا على هذا النوع من الأخبار وحاويا لهذا الفن من آثار"[2]، وفي كتابه "الأمثال " صرَّح بعد ثناء عاطر على صنيع القادر على الإبانة عن معاني الأمثال،والوقوف على مقاصدها وأصولها بأنه صنع كتابه هذا " مشتملا على ما لم يشتمل عليه كتاب أعرفه وضمنته إياها ملخصة لا يشينها الإهذار، ولا يزرى به الإكثار،ولا يعيبها التقصير والإقلال"[3]. أما في "الصناعتين" فإنه لما رأى تخليط الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام،وفضل هذا العلم،وحاجة الناس إليه،وقلة الكتب المصنفة فيه،وغيرها من الأسباب رأى أن يضع كتابه هذا"مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام: نثره ونظمه،ويستعمل في محلوله ومعقوده،من غير تقصير وإخلال،وإسهاب وإهذار"، فهاجس الريادة ظل قائما في تأليف كتاب منهجي شامل في صناعتي النثر والشعر،يخلو من عيوب السابقين الذين انزلقوا إلى مهاوي "التقصير والإخلال والإسهاب والإهذار"، ومثل هذه الإشارات هي ماجرَّ المقدمة للحوار مع المتون التي سبقتها أو زامنتها،فقد سبقت "الصناعتين" وعاصرتها ذخيرة وافية من متون النقد والبلاغة أهمها:

---

١ ديوان المعاني، أبو هلال العسكري، شرحه وضبط نصه أحمد حسن بسج، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤، الجزء الأول، مقدمة المؤلف، ص ١٦.

٢ الأوائل، أبو هلال العسكري، تحقيق وضبط وتعليق د.محمد السيد الوكيل، دار البشير للثقافة والعلوم الإنسانية، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص ١٨.

٣ جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تحقيق د.أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٨٨، الجزء الأول، المقدمة، ص ١١/١٠.

"البديع" لابن المعتز (ت ٢٩٦هـ)،"البيان والتبيين " و"الحيوان " للجاحظ (ت ٢٥٥هـ)،" الشعر والشعراء" لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)،"عيار الشعر "لابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ)،"نقد الشعر" لقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)،"الموازنة" للآمدي (ت ٣٧٠هـ)،"الوساطة" لعبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) بالإضافة إلى كتب أستاذه أحمد العسكري (ت ٣٨٢ هـ) " مثل صناعة الشعر" و"المصون في الأدب" وغيرها،وهي جهود وافرة تمثل إرثا ثقيلا على كاهل "الصناعتين ".فكيف تعاملت معها المقدمة؟

لاتستطيع المقدمة بسبب طبيعتها الاختزالية أن تبين مدى اختلافها واتفاقها مع كل المتون السابقة لمتنها،ولذا ستختار أشهرها وأهمها:"البيان والتبيين" لتحاوره،ولعل من المهم أن نتوقف عند ذلك،لأن ثناءها على "البيان" يخفي نقدا مبطنا،أما نقدها الصريح له فيشير لطبيعة المسار الذي يود المتن انتهاجه كما سنرى.

رابعا : خطاب المقدمة ومتن الجاحظ

تصف المقدمة كتاب الجاحظ بأنه "كثير الفوائد جم المنافع،لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة،والفقر اللطيفة،والخطب الرائعة،والأخبار البارعة،وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء،وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة،وغير ذلك من فنونه المختارة،ونعوته المستحسنة،إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة،وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه،ومنتشرة في أثنائه،فهي ضالة بين الأمثلة،لاتوجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير ".وهو ما تلقفته المقدمة عن ابن وهب الكاتب صاحب "البرهان في وجوه البيان " الذي كان دافعه لتأليف كتابه أن الجاحظ في "البيان والتبيين " قد "ذكر فيه أخبارا منتخلة،وخطبا منتخبة،ولم يأت فيه بوظائف البيان،ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان "[1] والذي مضى أبعد أيضا ليقفز إلى الاستنتاج بأن الكتاب "غير مستحق لهذا الاسم الذي نسب إليه "[2] ناسبا ذلك إلى صديق ـ غالبا ما يكون متوهما ـ اقترح عليه تأليف كتاب في علم البيان.

بقراءة خطاب المقدمة حول الجاحظ هنا تتضح علامتان :

---

١ البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب، أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق الدكتور حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة، ص ٤٨ .

٢ السابق:نفس الصفحة.

(١) إن قيمة كتاب الجاحظ ترجع في المقام الأول ــ على ضوء ماخصته المقدمة بالذكر ــ إلى احتوائه على الخطب الرائعة،والأخبار،وأسماء الخطباء والبلغاء،والتنبيه على مقاديرهم في البلاغة والخطابة.

(٢) إن إشكالية كتاب الجاحظ ــ من وجهة نظر المقدمة ــ تكمن في افتقاره للمنهجية العلمية المنظمة ؛ فالقدرة النقدية على تنظيم ومنهجة كل هذا الشعث الذي جمعه الجاحظ غائبة كما يتضح من عبارات المقدمة التي طالبت الجاحظ بـ " الإبانة عن حدود أقسام البيان"،فحدود البلاغة وأقسامها ضائعة بخضم الاستشهادات والاستطرادات والتداعيات،ولذا فهي في حاجة لمن يأتي ويضبط قوانينها ؛ ولذا فإن ما يقع على عاتق أبي هلال هو أن يصنف كتابا علميا منهجيا منضبطا في النقد والبلاغة يشتمل على "جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه،ويستعمل في محلوله ومعقوده من غير تقصير وإخلال وإسهاب وإهذار "،أي في شمول ومنهجية يمضيان في خط مضاد لما ما وقع فيه الجاحظ وغيره،ولذا سيأتي كتابه،مقسما إلى عشرة أبواب مقسمة بدورها إلى فصول.

لم يتوقف العسكري ليقارن بين طريقته وطريقة الجاحظ ؛ أي بين: منهجه المدرسي التصنيفي القائم على تجزئة المعرفة وتبويبها،ومنهج الجاحظ القائم على التداعي الحر الخصب،ولكنه نفى الجاحظَ مباشرة إلى أرض "الاستطراد " و"الإسهاب " والإهذار "؛ أي إلى اللامنهج،ولكن ما لم ينتبه إليه العسكري وابن وهب ومن سار وراءهما أن الجاحظ كان واعيا بصنيعه هذا ومراهنا على جدواه وفعاليته،كما كان واعيا بمنهجه المضمر الساري بتضاعيف كتبه كما يتضح من تخصيصه فصولا في بعض كتبه لمسائل تخص تأليف الكتاب مثل "تنقيح الكتاب"،و"ما ينبغي أن تكون عليه لغة الكتب"،وكما يتضح من عبارات عديدة له مثل:"ووجه التدبير في الكتاب إذا طال أن يداوي مؤلفه نشاط القارئ ويسوقه إلى حظه بالاحتيال له،فمن ذلك أن يخرجه من شيء إلى شيء ومن باب إلى باب بعد أن لا يخرجه من ذلك الفن ومن جمهور ذلك العلم"[١]. وقوله في باب البيان من "البيان والتبيين"":"وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب،ولكنا

١ البيان والتبيين، مصدر سابق ، الجزء الثالث، ص ٣٦٦.

أخرناه لبعض التدبير "[1]،وقوله في اقتران الحروف:". وهذا باب كبير. وقد يكتفى بذكر القليل حتى يُستدلّ به على الغاية التي إليها يُجرى "[2]، وإيراده في "الحيوان" نصا من اليونانية يؤسس لمنهج تأليف الكتاب، يقول:"وإما ديمقراط فإنه قال: ينبغي أن يعرف أنه لا بدَّ من أن يكون لكلِّ كتابٍ علمٍ وضعَه أحدٌ من من الحكماء ثمانية أوجه: منها الهمة، والمنفعة، والنسبةُ، والصحَّةُ، والصِّنف، والتأليف، والإسناد، والتدبير، فَأَوَّلُها أن تكون لصاحبه هِمَّة، وأن يكون فيما وضع منفعة،وأن يكون له نسبة يُنْسَب إليها، وأن يكون صحيحاً،وأن يكون على صِنف من أصناف الكتب معروفاً به،وأن يكون مؤتلفاً من أجزاء خمسة،وأن يكون مسنداً إلى وجه من وجوه الحكمة،وأن يكون له تدبير موصوف"[3]، وغيرها من الإشارات التي تفصح عن وعي الجاحظ المنهجي.

وقد اصطحب الجاحظ هذا الوعي لينسج شبكة منهجية مضمرة تنسرب بتضاعيف خطابه النقدي كما أسلفنا ؛ إذ لم يكن يهدف إلى تقديم خطاب نقدي مدرسي مفارق ومتعالٍ يقف على مبعدة من النص الأدبي واصفا محاسنه ومساوئه،ليحد بذلك تدفق تكثر دلالات النص الأدبي اللانهائية بالتمدرس والتعالم مثلما فعل أغلب معاصريه وسابقيه،بل رام كتابة نقد نصي يشتبك مع النص الأدبي في علاقة مماهاة لا مباينة،حيث النقد إنشاء نص على نص، يتواشج معه، وينسرب عبره، ويكثف مخفيه، ويحور لبناته، ويضيء معتمه، ويولِّد دلالاته في تيار يهضب ويتدفق ليجرف في طريقه العقلنة "المصطنعة" وحدود المناطقة،وفي تضاعيف نسج هذا النقد النصي يمكن الكشف عن منهج مضمر متماسك،أي عن منطق خاص ينظم قوانين خطابه ؛ فقد تعلمنا مع تيري إيجلتون أن المنهج يؤسس وجوده حتى في تلك الخطابات التي تتظاهر بالبراءة منه،أو تتمرد عليه،أو تتجاهله،فحتى الكتابة الحدسية المعتمدة على الومضات والإحساسات الباطنة تعتمد"على بنية كامنة من الافتراضات تعادل في عتادها بنية أي بنيوي"[4]، ولذا

---

١ المصدر السابق، الجزء الأول، باب البيان، ص ٧٦.

٢ المصدر السابق، ص ٦٩.

٣ الحيوان، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، ١٩٦٥، الجزء الأول، ص١٠١/١٠٢.

٤ مقدمة في نظرية الأدب، تيري إيجلتون، ترجمة أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ص٢٣٥/٢٣٦.

يمكن لأي قراءة متأنية للجاحظ أن تكشف عن عناصر هذا المنهج المضمر كما في قراءة الجابري مثلا التي يرى فيها أن الجاحظ قد اختار "طريقته في الكتابة بوعي ولأغراض بيداغوجية معتبرا إياها أكثر "بيانا" أي أكثر امتلاكا للسامع وجذبا له "[1] وقد سمى الجابري تلك الطريقة في الكتابة بالبيداغوجيا البيانية "ليس فقط لارتباطها بتصور الجاحظ للبيان،وممارسته له،بل لأنها الطريقة التي نجدها في المؤلفات الأدبية اللغوية مثل الكامل للمبرد والتي تعود أصولها إلى الشعر الجاهلي وإلى القرآن الكريم نفسه حيث بلغت أرقى مستوياتها وظهرت كمظهر من مظاهر إعجازه البياني"[2]،"على أن "البيان" عند الجاحظ ليس مجرد بيداغوجية في الكتابة بل هو أيضا وبالدرجة الأولى فن في القول له شروطه ومتطلباته"[3].

خامسا: خطاب تثمين الذات

يتصل بهذا التهجُّس بنص الجاحظ،ومحاولة الغض من شأنه في الوقت نفسه الخطابُ المتعالي الذي تبناه المتن في تثمين ذاته كلما سنحت الفرصة، وهو التثمين الذي يبلغ ذروته عندما يخاطب قارئه الاحتمالي بالقول:" وأنت أيدك الله تعتمد ما ذكرته من ذلك،وتأتمُّ بما شرحته منه،وتستدلُّ به على ما ألفيته من جنسه إذا عثرت به،لتستغنى عن جميع ما صنف في البلاغة،وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة إن شاء الله"[4]،أي ما عند الجاحظ وغيره ؛ فهو لايدرج كتابه باعتباره مرجعا في البلاغة يضاف إلى غيره حلقةً في سلسلة المعرفة اللانهائية،بل بوصفه "المرجع "الذي يغني عن غيره، وهي الدعوى العصابية المستحيلة التي تتردد بصيغ مختلفة على طول المتن ؛ فقد ختم الباب الثاني بقوله: "فهذه جملة إذا تدبرها صانع الكلام استغنى بها عن غيرها"،كما ختم بابه عن البديع بدعوة القارئ إلى المقارنة بين صنيعه وصنيع غيره في شرح أبواب البديع مخاطبا إياه بالقول:" وإذا أردت أن تعرف فضلها على ما عمل في معناها قبلها،فمثل بينها وبينه فإنك تقضِي لها عليه،ولا تنصرف بالاستحسان عنها إليه،إن

---

١. بنية العقل العربي، د.محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة التاسعة، ٢٠٠٩، ص ٢٦، ولمجمل قراءة الجابري لمنهج الجاحظ انظر الصفحات ٢٤-٣٠.
٢ المصدر السابق، ص ٢٦، ولمجمل قراءة الجابري لمنهج الجاحظ انظر الصفحات من ٢٤-٣٠.
٣ المصدر السابق: ٢٦.
٤ الصناعتين:٣٧.

شاء الله" وهكذا.في تثمين مفرط يمكن قراءته على أكثر من مستوى ؛ إذ يمكن النظر إلى تعالي خطابه من وجهة نظر نفسية /اجتماعية ـ لن نشغل بتقصيها هنا لاشتغالنا على نص المؤلف لا شخصه ـ بوصفه محاولة تعويضية عن وضعه الاجتماعي الذي كان يعاني وطأته،فقد اضطرته مرارة الفقر إلى أن يعمل بزازا (أي بائعا للثياب).المهنة التي كان يحس في قرارة نفسه أنها لا تليق به ولا بعلمه الغزير،وقد وصف حاله هذا بأشعار كثيرة مثل قوله [1]:

جلوسيَ في سوقٍ أبيعُ وأشتري ... دليلٌ على أنّ الأنامَ قُرودُ

ولا خيرَ في قومٍ يَذِلُّ كِرامُهم ... ويعظُمُ فيهم نَذْلُهم ويَسودُ

ويَهجوهُمُ عنّي رثاثةُ كِسوتي ... هِجاءً قبيحاً ما عليه مَزيدُ

ولكن من خلال قراءتنا للمقدمة يمكن أن نرى في ذلك أثرا من آثار صراعها الداخلي الضاري مع متون البلاغة السابقة والمعاصرة لاسيما متن الجاحظ "البيان والتبيين"،ومحاولة في إثبات التفوق عليها،وعلى الرغم من أنه حاور في متنه هذه المتون حوارا فعالا خصبا،كما سنبين بعد ؛ فإن هاجس "الأصالة" والحرث في أرض بكر لم تطأها قدم من قبل والذي طغا عليه سلبه متعة النظر إلى نعمة التناص النقدي الخصيب الذي أقامه نصه مع غيره بوصفه سليل نصوص نقدية عديدة،سابقة ومعاصرة له،تتقاطع وتتشابك وتتوالد وتتوازي في فضاء مفتوح تغتني فيه النصوص برصفائها،وليس نصا يتيما يؤسس عزلته في عالم يبدأ منه.

لقد كان نص الجاحظ ـ رغم غيابه الظاهري إلا مرة في حديث العسكري السابق ـ حاضرا بقوة في المقدمة ومثّلَ النصَ الغائب الذي عملت المقدمة على طمسه وتغييبه إما عبر تحويره،بحيث يختفي الأصل بالتستر عليه،أو بنقده مباشرة بادعاء التفوق عليه،ولكن أي قراءة متأنية للمقدمة تكشف عن تهجُّس المقدمة به عبر هذا الحوار الداخلي الضاري الذي أقامته معه ربما على مستوى لا وعي النص أحيانا،وبذا يمكن القول

١ ديوان أبي هلال العسكري، ضمن دواوين موسوعة الشعر العربي، المجمع الثقافي بأبي ظبي، الإصدار الثالث، ٢٠٠٣.

أن نـص الجـاحظ لـيس مـسكوت نـص المقدمـة فحـسب،بل مركـز تهجـسها وأرقها،ونولها المستتر الذي نسجت عليه مقولاتها.

يقودنا ما سبق إلى تتبع الوعود التي بذلتها المقدمة بسخاء في متن الكتاب، ولاسيما وعـدها الـرئيس بالأصالة والابتكـار والانزيـاح عـن مـتن الجـاحظ وغيـره، أي الإجابـة عـن السؤال: ما الأفق الذي وعدت المقدمة بافتتاحه، وما مدى تحققه في هذا المتن ؟ ولأن من العسير ـ بسبب طبيعة الدراسة وحجمها ـ تقصي حوار المقدمة مع المتن في كامل "الصناعتين" ؛ سنحاول فيما يلي الاقتصار على أهم أبواب الكتاب وأكبرها،وهو باب البـديع الـذي امتـد علـى مـدى أكثـر مـن مائـة وسـتين صـفحة ملتهمـا جهـدا نقـديا ثمينـا للمتن،ومـستوليا علـى حـوالى ثلـث صـفحاته، وهـو مـا سـنضعه تحـت عنـوان " تحـولات المصطلح ".

تحوُّلات المصطلح:

يمكـن أن نـضع "البـديع " فـي الـصناعتين تحـت عنـوان عـام هـو " تحـوُّلات المـصطلح " نعنـي بـذلك : تحـولات سـيرة المـصطلح البـديعي بـين الـصناعتين وغيـره لكـشف جهـد "الصناعتين" في التأسيس والإضافة التي وعدت بها في المقدمة،وفي ثنايا المتن، وعلى الرغم من شروع الدارس في تتبع مصطلحات العسكري البديعية ؛ فإن الجهود البلاغية التاريخية الخصبة لكل من شوقي ضيف[1]،وعبد الرازق أبوزيد[2]،و إنعام فوال [3] وغيرهم في تتبع سيرة المصطلح البلاغي عدَّلت من مسار هذه الدراسة،فبدلا من التتبع التفصيلي لمصطلحات البديع ـ الأمر الذي لن يفضي في الغالب سوى إلى تكرار المجهود للحصول تقريبا على نفس النتائج التي وصلت إليها الجهود السابقة ـ سنحاول أن نستثمر التتبع الدؤوب للمصطلح البديعي الذي بذلته هذه الجهود،وذلك للوصول إلى نتائج كلية لتحولات المـصطلح فـي الـصناعتين،وهي التحـولات التـي يمكـن أن نقـسمها إلـى ثلاثـة محـاور: النقل،والتوسع،والتأسيس.

---

١ انظر:البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، د.ت.

٢ علم البديع:نشأته وتطوره من ابن المعتز حتى أسامة بن منقذ، د.عبد الرازق أبوزيد زايد، المكتبة العلمية بالمنصورة، مصر، ١٩٨٧.

٣ المعجم المفصل في علوم البلاغة، د.إنعام فوال عكاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٦.

أولا: نقل المصطلح:

إذا تعاملنا مع ظاهر متن "الصناعتين" فإن أغلب جهد المتن قد اقتصر في البديع على الأخذ عما سبقه،فقد أخذ أغلب مصطلحاته عن ابن المعتز وقدامة وغيرهما،فإذا اقتصرنا على المصطلحات التي ذكرها في باب البديع بفصوله الخمسة والثلاثين،وهي ستة وثلاثون مصطلحا إذ ذكر في الفصل الأخير مصطلحين هما التلطف والمشتق الذي عرض له بعد الفراغ من باب البديع ؛ فإن النتيجة الإحصائية لسيرة المصطلح البديعي بين أبي هلال وسابقيه يمكن أن يعبر عنها الجدول التالي :

جدول (١)

مصادر مصطلحات البديع في "كتاب الصناعتين"

م	المصدر	عدد المصطلحات	النسبة المئوية	المصطلحات
١	ما اشترك فيه مع ابن المعتز	١٠	٢٧,٧٨	الاستعارة،المذهب الكلامي،رد الأعجاز على الصدور،الاعتراض،الرجوع،تجاهل العارف،حسن الخروج من معنى إلى معنى "سماه العسكري الاستطراد"،التعريض والكناية،الإفراط في الصفة "سماه الغلو"،تأكيد المدح بما يشبه الذم "وسماه الاستثناء" .
٢	ما اشترك فيه مع قدامة	١١	٣٠,٥٦	الترصيع،صحة التقسيم،صحة التفسير، المقابلة، الإشارة، التمثيل "وسماه المماثلة"، التوشيح، الإيغال،المبالغة،التتميم "سماه التتميم والتكميل "،،الإرداف.
٣	ما اشترك فيه مع قدامة وابن المعتز	٣	٨,٣٣	المطابقة،التجنيس. الالتفات.
٤	مصادر مختلفة	٥	١٣,٨٩	التذييل،جمع المؤتلف والمختلف،السلب والإيجاب،التعطف.
٥	ما ذكر أنه انفرد بوضعه	٧	١٩,٤٤	التشطير،المجاورة،التطريز،المضاعف،الاستشهاد والاحتجاج،التلطف،المشتق.
	المجموع	٣٦	١٠٠	—

ويتضح من الجدول أن عدد المصطلحات التي أخذها عن غيره يبلغ تسعة وعشرين مصطلحا من جملة ستة وثلاثين مصطلحا بنسبة مئوية تبلغ ٨٠,٥٦% وهي نسبة عالية،ولا يتبقى له من جهة التأسيس الخالص سوى ١٩,٤٤% ولكن هذا الإحصاء الشكلي لا يلبث أن يتبدى لنا خادعا عندما نمضي لما وراءه ؛ فأبو هلال لم يكتف بمحض

النقل عن غيره،فقد اجتهد في الاستقراء والإكثار من الشواهد التي تمتّن المصطلح وترسخه وتوسعه،بحيث لم يفلت من يده من المصطلحات التي نقلها دون إضافة سوى القليل مثل الإشارة، والاعتراض، والمذهب الكلامي، كما أن النسبة المتبقية التي نسبها إلى تأسيسه وهي ١٩,٤٤% لن تتبقى خالصة له عند تتبع شجرة نسبها عند سابقيه وكشف كيفية إخضاعه بعض المصطلحات السابقة التي زعم أنها من تأسيسه المحض للتحوير.

ثانيا: توسع المصطلح:

منح المتن نفسه حرية واسعة في قراءة المصطلحات والنصوص البلاغية التي سبقته ؛ فلم يشتغل عليها كنصوص جاهزة يجري حفظها واستظهارها،بل مارس كما أسلفنا تحويرا واسعا على أغلب المصطلحات التي ورثها عن سابقيه من البلاغيين منطلقا في ذلك من نظرته المتسامحة الواسعة للأخذ الأدبي إذ "ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم.."[١]،وقد خصص بابا كاملا للأخذ الأدبي استهله بالمقولة السابقة ودلل بدلائل كثيرة أن المعاني مشتركة بين العقلاء فـ"لولا أنّ القائل يؤدى ما سمع لما كان في طاقته أن يقول،وإنما ينطق الطّفل بعد استماعه من البالغين" واستشهد بقول علي بن أبي طالب:"لولا أن الكلام يعاد لنفد"،وقول بعضهم: "كل شيء ثنيته قصر إلاّ الكلام فإنك إذا ثنيته طال"[٢]،وهذه النظرة المتسامحة نقديا تجاه التناص الأدبي هي التي قادت نصه للتناص النقدي مع من سبقه.

وقد كان العسكري واعيا بطبيعة الحوار الذي أداره مع النصوص السابقة والمتزامنة ولكنه أخَّر الاعتراف به لآخر كتابه حيث قال: "وكل شيء استعرته من كتاب وضمنته إياه فإني لم أخله من زيادة تبيين واختصار ألفاظ وغير ذلك مما يزيد في قيمته ويرفع من قدره"[٣] في إشارة لبعض وجوه استثماره لآليات حواره مع النص الغائب ؛ فقد استخدم المتن آليات تحوير واسعة في قراءة النصوص النقدية البلاغية التي

---

١ الصناعتين:١٩٦.
٢ السابق:١٩٦.
٣ السابق:٤٦٣.

سبقته،فهو إذ يروم تأليف كتاب شامل في صناعتي الشعر والنثر لا يمكن له أن يهمل جهود من سبقه،ويبني على فراغ،فأرض التأليف هنا ليست بكرا،إنما حرثت بمجهودات من كان قبله،ولكنه تحلى بحرية واسعة في النظر إلى خطاباتهم: كشف مصطلحات بعينها،وفرع من أخرى،وتوسع في استقراء الأمثلة،وهكذا ؛ ولأن استقصاء كل هذه المصطلحات يفيض عن مساحة هذه الدراسة ؛ نشير إجمالا إلى صنيعه في هذا ؛ فقد التقى مع قدامة في "صحة التقسيم" مثلا مما أوهم بعض الباحثين بأنه اكتفى فيه بالنقل عن قدامة مثل عبد الرزاق أبوزيد الذي قال عنه:"وهو من الألوان التي التقى فيها مع قدامة،وعرفه... ثم تحدث عن التقسيم المعيب،وهو في كل ذلك يتابع قدامة بن جعفر في هذا المصطلح واستشهد بالبيت الذي استشهد به قدامة"[1]،مما يوهم بمطابقته مع قدامة، لكن جوانب هذا التوهم تتضح ابتداء من المقارنة بين التعريفين، فقد عرفه قدامة بالقول:"وهي أن يبتدئ الشاعر فيضع أقساما فيستوفيها ولا يغادر قسما منها"،بينما عرفه أبو هلال بالقول:" التقسيم الصحيح أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه،ولايخرج منها جنس من أجناسه " وهو أدق لأنه لم يخص الشعر بصحة التقسيم كما فعل قدامة، إنما عمّ به الكلام وهو الأصح،ولذا جعل أول أمثلته من النثر لا من الشعر،فابتدأ بقوله تعالى: "هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا "،وثناها بثلاثة شواهد أخرى من النثر قبل أن يعطف على الشعر، وهو ما لم يفعله قدامة إذ أتى بجميع أمثلته من الشعر،مما قد يوهم بأن صحة التقسيم مقصور على الشعر،ولعل لذلك علاقة بموضوعي الكتابين فبينما اقتصر قدامة على "نقد الشعر" اتسع اهتمام العسكري ليشمل "الصناعتين": الشعر والنثر، كما توسع العسكري أيضا في شواهده.

أما بالنسبة للتجنيس فقد أخذ المصطلح من ابن المعتز وقدامة،وأورد قسميه كماهما عند ابن المعتز، وكذا بعض أمثلتهما، ولكنه ما لبث أن فرق بين التجنيس والتصريف بأمثلة عديدة متنبها إلى أن اختلاف الكلمتين في المعنى مع توحدهما في أصل الاشتقاق هو أساس التجنيس مخطئا في ذلك الأصمعي الذي بنى كتابه "الأجناس "،على

---

١ علم البديع نشأته وتطوره، مصدر سابق:٢٢٥.

التوحـد فـي أصـل الاشـتقاق دون اعتبـار اخـتلاف المعنـي حيـث" يكـون المطيـع مـع المستطيع، والآمر مع الأمير تجنيسا"[1]، فليس في مثل:

يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

" تجنيس وإنما اختلفت هذه الكلم (الأنس الأنيس) للتصريف "[2]، وقد سـار البلاغيون على خطاه في ذلك،ثم باعد خطاه عن ابن المعتز أكثر بذكر قسم لم يسبق إليه وهو "أن تأتي بكلمتين متجانستي الحروف إلا أن في حروفها تقديما وتأخيرا "[3]،وضرب له أمثلة صارت من كلاسيكيات شواهد الجناس التي يكاد لا يخلو منها كتاب بلاغي بعده مثل قـول أبـي تمـام: "بيض الصفائح لا سـود الصحائف [4]،و قـد فـتح ذلـك ــ كما فـتح حديثه السابق في تأمل الحروف وترتيبها في الكلمات المتجانسة ــ الباب أمام البلاغيين بعده لاشتقاق أنواع عديدة من الجناس.

وفـي صـحة التفـسير توسـع فـي اسـتقراء الـشواهد،ورصد العيـوب،وفي الغلـو ذكـر تعريفا له لم يذكره قدامة الذي أخـذ المصطلح عنه،وذكر عيوبه وتوسـع في أمثلته. وفي المبالغة أورد تعريفا مختلفا عن تعريف قدامة لها،واستشهد لها بأمثلة كثيرة،وذكر ما عرفه بها قدامة بأنها نوع منها،كما حوّر أسماء بعض المصطلحات فلم يوردها كما هي عند قدامة ؛ فقد سمى التمثيل المماثلة،والتتميم بالتتميم والتكميل،وهو نفس صنيعه مع بعض المصطلحات التي أخذها عن ابن المعتز فقد سمى "حسن الخروج من معنى إلى معنى" الاستطراد"، كماسمى "الإفراط في الصفة "الغلو"و"تأكيد المدح بما يشبه الذم " الاستثناء" وإن كان المصطلح الأخير مربكا لأنه لا يشير إلى دلالته البلاغية،ولالتباسه بالمصطلح النحوي المعروف الذي أسس له سيبويه(ت ١٨٠هـ) قبله،كما تأمل في موافقة مسمَّى المصطلحات لدلالتها فاقترح اسم التبيين لما عرف بالتوشيح فـ "هذه التسمية غير لازمة بهذا المعنى،ولو سمى تبيينا لكان أقرب، وهو أن يكون مبتدأ الكلام ينبئ عن مقطعه،وأوله يخبر بآخره،وصدره يشهد بعجزه "[5] وهكذا.

---

١ الصناعتين:٣٢١

٢ السابق:٣٢٢

٣ السابق:٣٣١

٤ علم البديع نشأته وتطوره، مصدر سابق: ٢٢٣.

٥ الصناعتين:٣٨٢.

أما في الشواهد فقد توسع فيها كثيرا إذا قارناه بقدامة كما يوضح الجدول التالي الذي يبين العلاقة بين شواهده وشواهد قدامة بن جعفر في مصطلحات البديع التي التقيا فيها،و يرمز الحرف "ش" للشواهد الشعرية،بينما يرمز الحرف "ث" للشواهد النثرية:

جدول رقم (٢)

العلاقة بين شواهد "نقد الشعر" و"الصناعتين" في مصطلحات البديع المشتركة

م	المصطلح البديعي	شواهد الصناعتين		شواهد "نقد الشعر"		الشواهد التي نقلها كتاب "الصناعتين" عن "نقد الشعر"		الشواهد التي انفرد بها كتاب "الصناعتين"		النسبة المئوية لانفراده في مجمل شواهده
		ش	ث	ش	ث	ش	ث	ش	ث	
١	التقسيم	١٤	١٠	١٠	١	٨	١	٦	٩	%٦٢
٢	التفسير	٩	٤	٥	_	٥	٠	٤	٤	%٦١,٥
٣	المقابلة	١٤	٢٣	٨	_	٥	٠	٩	٢٣	%٥٦,١
٤	المبالغة	١٢	٩	٧	_	٥	٠	٧	٩	%٧٦,٢
٥	الإشارة	٥	٤	١٤	_	٣	٠	٢	٤	٦٦,٧
٦	التتميم	١٣	٧	١٠	_	٥	٠	٨	٧	%٧٥
٧	الترصيع	٣٤	_	٢٩	٣	٢١	_	١٣	٠	%٣٨,٢
٨	الإرداف	١٠	٥	٥	_	٣	__	٧	٥	%٨٠
٩	التمثيل	١٧	٣٦	٩	_	٣	_	١٤	٣٦	%٩٤,٣
١٠	التوشيح	١١	٥	٤	_	٣	٠	٨	٥	%٨١,٣
١١	الإيغال	٨	١	٦	_	٦	.	٢	١	%٣٣,٣
	المجموع	١٤٧	١٠٤	١٠٧	٤	٦٧	١	٨٠	١٠٣	%٧٢,٩

وبقراءة هذا الجدول متزامنا مع متني "نقد الشعر" و"الصناعتين" يتضح لنا ما يلي:

(١) إن العسكري لم يكتف في المصطلحات التي التقى فيها مع قدامة بنقل الشواهد والتعريفات بل توسع كثيرا في إيراد الشواهد التي تعمل على تمتين المصطلح وترسيخه،ويظهر الجدول جهده الهائل في التوسع في الشواهد،وتفوقه الواضح على قدامة في ذلك،فعلى الرغم من أنه كان يبني عمله على شواهد قدامة ؛ فإنه ما يلبث أن يجهد في الانطلاق منها لشواهده هو،وفي بعض الأحيان يبلغ انفراده بشواهد جديدة نسبة عالية كما في شواهد التمثيل والإرداف والتوشيح والتتميم والمبالغة،كما أنه ينفرد بالشواهد النثرية التي نادرا ما يوردها قدامة لانصباب همه على الشعر لا النثر.

وقد بلغ مجمل شواهده التي انفرد بها عن قدامة في المصطلحات الأحد عشر التي التقيا فيها مائة وثلاثة وثمانين شاهدا،بينما نقل عنه ثمانية وستين شاهدا فقط من جملة مائتين وواحد وخمسين شاهدا ؛ وبذا تبلغ نسبة اعتماده على قدامة في مجمل شواهده حوالي ٢٧,١%،بينما تبلغ نسبة شواهده التي انفرد بها حوالي ٧٢,٩% .

(٢) في بعض الأحيان يستولي جنون النقل من قدامة على متن أبي هلال فلا يكاد يترك له شاهدا واحدا كما يتضح في الإيغال مثلا إذ نقل جميع شواهده الستة،وإن أضاف إليها شاهدين في الشعر، وشاهدا يتيما في النثر،وبذا بلغت نسبة اعتماده على قدامة هنا ٦٦,٤%، وفي "صحة التقسيم" نقل ثمانية من شواهد قدامة العشرة في الشعر، كما نقل أيضا شاهده الوحيد في النثر، وإن حاول تعويض ذلك بالإتيان بست شواهد شعرية،وتسع نثرية من عنده،أما في الترصيع فقد نقل واحدا وعشرين شاهدا من شواهد قدامة التسع والعشرين،ولم يترك له سوى ثمانية،وإن أتى بثلاثة عشر شاهدا من عنده،وبلغت نسبة اعتماده على قدامة في شواهده هنا ٦١,٨%،وهذا الاتكاء على قدامة هو ما حيَّر بعض النقاد ودفعهم لاعتبار العسكري "أقل النقاد أصالة"، فما دافع العسكري لهذا النقل الغريب عن قدامة ؟

يمكن قراءة الجواب عن هذا السؤال من خلال المقدمة والمتن معا ؛ فمنذ المقدمة كان واضحا توق أبي هلال العارم لتأليف كتاب شامل في صناعتي الشعر والنثر يحتوي على جهود غيره،ويستغني عنها،أما في المتن فقد كان هذا الاهتمام المفرط بشواهد قدامة بدافع طموحه في استغناء القارئ عن كتاب قدامة،وما أكثر ما كان يشير في نهاية أبوابه لقارئه المحتمل بالاكتفاء بكتابه والاستغناء عن غيره ؛ كأن يكتب في نهاية الباب الثاني:"فهذه جملة إذا تدبرها صانع الكلام استغنى بها عن غيرها"[1] أي عن ما عند قدامة والجاحظ وغيرهما،ويكتب في نهاية بابه هذا ـ باب البديع ـ بعد أن يعرض لألوان البديع المختلفة ويمثل لها:" وإذا أردت أن تعرف فضلها على ما عمل في معناها قبلها،فمثل بينها وبينه فإنك تقضِي لها عليه،ولا تنصرف بالاستحسان عنها إليه،إن شاء

١ السابق:١٣٢.

اللّه"[1]، وفي نهاية بابه السادس يصرح بأنه أتى في هذا الباب بما فيه الكفاية ويضيف:"ولا أعلم أحداً ممن صنّف في سرق الشعر فمثل بين قول المبتدي وقول التّالي،وبين فضل الأول على الآخر،والآخر على الأوّل،غيري"[2] وهكذا.

(٣) إن أبا هلال قد يورد شاهدا لقدامة ليس للاستدلال به،إنما لنقده،مختلفا مع قدامة في نسبته إلى النوع البديعي الذي وضعه تحت قدامة،أو في مدى جودته وحسن تمثيله لذلك النوع،ومن الضرب الأول ردُّ أبي هلال شاهد قدامة من الشاعر عبد الرحمن بن علي في التمثيل:

أوردتهم وصدور العيس مسنفة والصبح بالكوكب الدري منحور

فبينما رأى قدمة في البيت إشارة إلى الفجر بغير لفظه،فإن أباهلال رأى أن "ليس في هذا البيت إشارة إلى الفجر،بل قد صرّح بذكر الصبح،وقال: هو منحور بالكوكب،أي صار في نحره،ووضعُ هذا البيت في باب الاستعارة أولى منه في باب المماثلة" [3]،ومن الضرب الثاني أن قدامة يرى أن الترصيع قد يتواتر في أبيات متتالية ويحسن لخلوه من التكلف والتعمد،ويستشهد لذلك بأبيات لأبي صخر الهذلي وأبي المثلم باعتبارها من الأبيات الجيدة في توالي الترصيع "مما يكاد لجودته أن يقال فيه غير متكلف ".أما العسكري فيرى أن الترصيع إذا اتفق في بيت أو بيتين من القصيدة فهو حسن،أما إذا كثر وتوالى فهو دال على التكلّف ضربة لازب،وحلل ما أورده قدامة للهذلي وأبي المثلم،وكذلك أبياتا أخرى للخنساء[4] مبينا ما فيها من تعسف في الترصيع.

(٤)إن كثرة الشواهد التي يسوقها العسكري واطرادها وتتابعها ليس دليلا على صحتها ؛ فالإلحاح في استقراء الشواهد قد يقود أحيانا إلى ضرب من التعسف،ولي عنق النص الأدبي لينسجم مع القاعدة،وإخضاع متخيله لضرب من التأويل العقلاني المتعسف،ولندلل على ذلك ببعض الشواهد التي وردت تحت مصطلح واحد مثل "صحة التقسيم":

---

١ السابق:٤٢٩.
٢ السابق: ٢٣٧.
٣ السابق:٣٥٦.
٤ السابق: ٣٧٧ وما بعدها.

(أ)ضرب قدامة والعسكري مثلا للمعيب من التقسيم الذي يأتي مكررا بقول هذيل الأشجعي:

فما برحت تومي إليك بطرفها وتومض أحيانا إذا خصمها غفل

ورأى أن تومض وتومي بمعنى واحد،والحق أنهما مختلفان ؛ إذ ذكر صاحب اللسان في باب "ومأ" ومَأَ إليه يَمَأُ وَمْأً أَشارَ مِثل أَوْمَأَ وَأَوْمَأَ كَوَمَأَ ولا تقل أَوْمَيْتُ، الليث: الإيماءُ أن تُومئَ بِرَأْسِكَ أَوْ بِيَدِك كما يُومِئُ المَرِيضُ برأسه للرُّكُوعِ والسُّجُودِ "[1]فالإيماء الإشارة،وفي البيت الإشارة بالعين،أما الومض فلها معنيان فإما أنها بمعنى "لمع لمعا خفيا.. وأنشد في ومض: وتضحك عن غر الثنايا ناصع مثل ومض البرق لما عن ومض،يريد لما أن ومض "[2] والمعنى الثاني "ومض وأومضت المرأة إذا سارقت النظر،ويقال أومضته فلانة بعينها إذا برقت"[3] ، وبالمعنى الثاني يكون مراد الهذيلي أنها إذا غفل خصمها عنها تشير بعينها إلى حبيبها،أو تبرق وتلمع عينها إذا ما رأته.

(ب) ضرب قدامة مثلا للمكرر من التقسيم ـ وتبعه العسكري في ذلك ـ بيت أمية بن أبي الصلت:

لله نعمتنا تبارك ربنا رب الأنام ورب من يتأبد

وعلق عليه قدامة بالقول:" فليس يجوز أن يكون أمية أراد بالقول من يتأبد: الوحش وذلك لأن "من" لا تقع على الحيوان غير الناطق،وإذا كان الأمر على هذا فمن لا يتوحش داخل في الأنام،أو يكون أراد بقوله يتأبد أي يتقوت من الأبد،وذلك داخل في الأنام"[4].

وهذا مجانب للصواب ، فالحق أنه مثلما تدخل "ما" على العاقل وعلى غيرالعاقل لشمولها وسعتها في مثل قوله ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾(الأعراف:١٨٥)، وقوله ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (النحل: ٤٩)و قوله تعالى﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ﴾ (النساء: ٣)،فإن "من"

١لسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن عبد المكرم بن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ط٣، ١٩٩٤، المجلد الأول، مادة "ومأ"، ص٢٠١.

٢ لسان العرب، مصدر سابق ، المجلد السابع ، مادة "ومض"، ص ٢٥٢.

٣ لسان العرب ، مادة "ومض"، ص ٢٥٢.

٤ نقد الشعر، قدامة بن جعفر، مصدر سابق: ١٩٢.

تدخل على العاقل وعلى غير العاقل أيضا،وقد حدد بعض النحاة [1] دخول من على غير العاقل بثلاثة مواضع هي:

(١) أن ينزَّل غير العاقل منزلة العاقل،كما في النداء مثل قول الشاعر:

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي إلى من قد هويت أطير

وقول امرئ القيس:

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي وهل يعمن مَنْ كان في العصر الخالي

(٢) أن يشمل العاقلَ وغيرَ العاقل حُكْمٌ واحد نحو قوله تعالى ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١٧)لشموله الآدميين والملائكة والأصنام.

(٣) أن يقترن غيرُ العاقل بالعاقل في عمومٍ مُفَصَّلٍ بـ [مَن] نحوقوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النور: ٤٥) ،فأوقع "من" على غير العاقل لما اختلط بالعاقل.

والموضع الثاني هو الشاهد في البيت المذكور إذ شمل الناس "العاقل" والوحش "غير العاقل" حكم واحد هو السجود لله تعالى،وهو حسن تقسيم في محله تماما.

(ج) ضربا مثلا للمعيب المكرر من التقسيم بقول عبدالله بن سليم الغامدي:

فهبطت سربا ما يفزع وحشه من بين سرب ناوئ وكنوس

وعلق عليه قدامة بالقول:"ناوئ سمين،يقال نوئ أي سمن،والسمين يجوز أن يكون كانسا،والكانس يجوز أن يكون سمينا وهزيلا "[2]،كما علق عليها العسكري بالقول:" فقسم قسمة رديئة،لأنه جعل الوحش بين سمين وداخل في كناسه، وكان ينبغي أن يقول: من بين سمين وهزيل،أو بين كانس وظاهر،ويجوز أن يكون السمين كانساً وراتعاً والكانس سميناً وهزيلا"، وتطرف العسكري حتى عدها من حماقات الكلام فقال:"وما أعرف لهذا شبها إلا قول كيسان حين سأل فقال: علقمة بن عبدة،جاهلي أو من بني تميم"[3].

---

١ الكفاف، يوسف الصيداوي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩، الجزء الأول، ص ٥٦١.
٢ نقد الشعر: ١٩٣.
٣ الصناعتين: ٣٤٢/٣٤٣.

والإشكال هنا " أن ناوئ" هذه بمعنى سمين،أو غير سمين لم نجدها في معاجم اللغة،أو في استعمالات العرب شعرا ونثرا ؛ فلاهي ولا فعلها نؤي مما استعمله العرب،والكلمات الأقرب إليها مما جاء في معاجم العربية هي: ناء،نأى،ناوأ،ونوى، وباستقراء هذه الجذور اللغوية نجد في مادة ناء في اللسان لابن منظور (ت ٧١١ هـ): " ناءَ بِحِمْلِه يَنُوءُ نَوْءاً وتَنْوَاءً: نَهَضَ بجَهْد ومَشَقَّةٍ. وقيل: أُثْقِلَ فسقَطَ،فهو من الأَضداد.. وكذلك نُؤْتُ به. ويقال: ناءَ بالحِمْل إذا نَهَضَ به مُثْقَلاً. وناءَ به الحِملُ إذا أَثْقَلَه... وناءَ به الحِمْلُ وأَناءَه مثل أَناعَه: أَثْقَلَه وأَمالَه،كما يقال ذهَبَ به وأَذْهَبَه..."[1]، وفي مقاييس اللغة " كلمةٌ تدلُّ على النُّهُوض وناءَ ينوءُ نوءاً: نَهَضَ. قال:

فقلنا لهم تِلْكُمْ إذاً بَعْدَ كرَّةٍ نغادر صَرْعَى نوؤُها متخاذِلُ

أي نهوضها ضعيف والنَّوْءُ من أنواءِ المطَر كأنَّه ينهَض بالمطر. وكلُّ ناهض بِثِقْلٍ فقد ناءَ"[2]، وربما كان هذا الجذر"ناء " هوالذي نظر إليه العسكري فاستنتج منه أن ناوئ بمعنى سمين.

أما نأى فقد اتفقت المعاجم على دلالاتها على البعد[3]، أما ناوأ فـ " يقال: ناوَأه،إذا عاداه. وهو قياسُ ما ذكرناه (أي في باب ناء)،لأنها المناهَضة،هذا ينوءُ إلى هذا وهو ينوءُ إليه أي يَنْهَض"[4]، وجاء في اللسان:" ناوأت الرجل مناوأة ونواء:فاخرته وعاديته"[5]، أما نوى فنوى الأمر إذا قصد إليه ؛ فنحن هنا أمام أربعة جذور للكلمة، ولم يبق في يدنا سوى أن نرجح أحدها ؛ إذ يبدو أن الكلمة قد جرى تحويرها من كلمة شبيهة بـ"ناوئ" بعد أن اضطرت الشاعر إلى ذلك ضرورات الشعر ومضايقه، وقد سبق لابن السراج (ت ٣١٦هـ) أن أشار لمثل هذه المضايق في مثل قوله:" ربما وجدت الشاعر من القدماء الفصحاء يحوجه الوزن إلى قلب البناء،أو يحتاج إلى المعنى فيشتق له لفظا يلتئم به شعره "[6]. وربما كان

---

١ لسان العرب ، المصدر السابق ، المجلد الأول ، مادة نوأ ، ص ١٧٤.
٢ معجم مقاييس اللغة ،أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ)، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق،١٩٧٩، الجزء السادس، مادة ناء.
٣ لسان العرب ، المجلد الخامس عشر ، مادة نأي ، ص ٣٠٠/ ٣٠١.
٤ مقاييس اللغة ، مصدر سابق، مادة ناء.
٥ لسان العرب ، مصدر سابق ، المجلد الأول ، مادة نوأ ، ص ١٧٨.
٦ رسالة الاشتقاق ، ابن السراج ، تحقيق مصطفى الحدري ، الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٩٧٣، ص ٢٨.

الجذر "نأى" هنا هو الأمس رحما بالمعنى،فاسم الفاعل منه ناءٍ أي بعيد،فحوَّره الشاعر إلى "ناوئ" بعد أن اضطره إلى ذلك بحر الكامل،فيكون المعنى أن الشاعر قد هبط واديا توزع وحشه بين بعيد يرعى في الخلاء،وآخر قريب داخل في كناسه.

(د) ضربا مثلا لمعيب التقسيم قول جرير في بني حنيفة:

صارت حنيفة أثلاثا فثلثهم   من العبيد وثلث من مواليها

وجعله قدامة أول شاهد للعيب الثالث من عيوب التقسيم وهو ترك قسم مما لا يحتمل الواجب تركه،ولكن موطن الخطل هنا في استشهاد قدامة والعسكري ببيت جرير في معيب التقسيم أن للبيت بقية في البيت الذي يتلوه،والبيتان هما[1]:

صارت حنيفة أثلاثا فثلثهم   من العبيد وثلث من مواليها
قَد زَوَّجوهُم فَهُم فيهِم وَناسِبُهُم   إِلى حَنيفَةَ يَدعو ثُلثَ باقيها

وبذا تكون أقسام حنيفة الثلاثة في رأي الشاعر ثلاثة هي: العبيد،والموالي،والموالي الذي تزوجوا من حنيفة فانتسبوا إلى حنيفة .

وحتى إن افترضنا أن البيت قرئ لوحده، كما يجري مع أمثاله،فإن جريرا كما ذهب البغدادي " أراد بالثلث المتروك أشرافهم وترك الثالث عمدا لأنه في مقام الذم لا يثبت لهم أشرافا صراحة"[2].

وقد انتبه ابن الأثير لمثل ذلك في فصله الذي خصصه للتقسيم،فذهب إلى أن "استيفاء الأقسام يلزم فيما استبهم الإجمال فيه"،مستدلا بالآية ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (الحشر: ٢٠) "، حيث خص الله أصحاب الجنة بالذكر للعلم بأن أصحاب النار لا فوز لهم،ولو خص أصحاب النار بالذكر لعلم أيضاً ما لأصحاب الجنة،وكذلك كل ما يجري هذا المجرى"[3].

(هـ) ومن عيوب القسمة عند العسكري قول بعض العرب:

---

١ ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق د.نعمان محمد أمين، الطبعة الثالثة، دار المعارف، د.ت، الجزء الثالث، ص ٥٤٥.

٢ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، الطبعة الثانية، ١٩٨٤، الجزء الخامس، ص ٣٩/٤٠.

٣ المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير، قدمه وحققه وعلق عليه د.أحمد الحوفي ود.بدوي طبانة، دار نهضة مصر بالفجالة، القاهرة، د.ت، القسم الثالث، ص ١٦٨.

سقاه سقيتين الله سقياً طهوراً والغمام يرى الغماما

"فقال سقيتين ثم قال :سقياً طهوراً،ولم يذكر الأخرى،وقيل :أراد في الدنيا وفي الآخرة وهذا مردود،لأن الكلام لا يدل عليه"[1]،والحقيقة أن معنى البيت ليس كما تبادر إلى العسكري،فالبيت فيه تقديم وتأخير لمواءمة بحر القصيدة وهو الوافر فأصله: سقاه الله سقيا طهورا سقيتين،ولو قال ذلك لكسر وزن البيت،فكلا السقيتين طاهر،ولايمكن أن يكون المعنى أن الله سقاه سقيتين الأولى طاهرة،والثانية غير الطاهرة .

(و) أورد العسكري في "معيب التقسيم " الذي يدخل أحد أقسامه في الآخر قول بعضهم :فمن بين جريح مضرج بدمائه،وهارب يلتفت إلى ورائه" ؛ فالجريح قد يكون هارباً،والهارب قد يكون جريحا،ولو قال :فمن قتيل لصح المعنى"،وهنا تعسف في قسر المعنى،فالصحيح أن الجريح قد يكون هاربا،والهارب قد يكون جريحا،ولكن مراد القائل أنهم انقسموا هنا ما بين جريح قد ضرجته الدماء فهو في أرض المعركة،وهارب شارد،ولذا وضع الجريح العاجز قبالة الهارب القادر ؛ أي بين عاجز عن الهرب بسبب جراحه،وهارب قادر على ذلك يتلفت وراءه خوفا.

(ز) أورد العسكري قول جميل:

لو كان في قلبي كقدر قلامةٍ حبا وصلتك أو أتتك رسائلي

في "معيب التقسيم"بحجة أن "إتيان الرسائل داخل في الوصل".

ولكن الوصل كما في فحوى البيت هو إتيان المحبوب ولقياه،وبذا يكون المعنى أن جميلا يخاطب هذه المرأة فيقول لها أنه لو كان في قلبه ذرة حب لها لسعى للقياها،أو أرسل لها رسائله إن تعذرت اللقيا،ولذا خطأ ابن الأثير (٦٣٨هـ) العسكري في البيت فقال:" وليس الأمر كما وقع له،فإن جميلا إنما أراد بقوله وصلتك أي أتيتك زائرا وقاصدا أو كنت راسلتك مراسلة،والوصل لا يخرج عن هذين الوصفين إما زيارة،وإما رسالة"[2].

١ الصناعتين: ٣٤٢..

٢ المثل السائر: مصدر سابق، ١٧٠/١٦٩.

ثالثا: تأسيس المصطلح

نصَّ أبو هلال أنه قد ابتكر سبعة مصطلحات هي: التشطير،والمجاورة،والتطريز، والمضاعف،والاستشهاد،والتلطف،والمشتق وهي دعوى عريضة تحتاج إلى قراءة فاحصة للكشف عن مدى التباسها،ليس فقط لصعوبة اجتراح مصطلح من فراغ،بل لعدة أسباب من بينها أن أباهلال الذي يؤمن أن المعاني مشتركة بين العقلاء قد عودنا على التحوير لمصطلحات وأفكار غيره،وكذلك لإشكاليته المزمنة في عدم الإشارة لمن يأخذ منهم،ونظرته المتسامحة في التعاطي مع نصوص غيره،ولذا نرى لزاما أن نضع بعض هذه المصطلحات التي زعم تأسيسها في دائرة القراءة المتأنية.

التشطير أول المصطلحات التي زعم العسكري ابتكارها وقد عرفه بقوله:" وهو أن يتوازن المصراعان،والجزءان،وتتعادل أقسامهما مع قيام كل واحد منهما بنفسه،واستغنائه عن صاحبه"[1]،وهذا التعريف مأخوذ كما لا حظ أبو زيد من قول ثعلب في" قواعد الشعر " أبلغ الشعر ما اعتدل شطراه وتكافأت حاشيتاه "[2]،فبينما اكتفى ثعلب بجعل ذلك من بلاغة الشعر حاول العسكري أن يمد عبارة ثعلب لأقصاها ليستخرج منها لونا بديعيا جديدا،وبعد أن يشرع في الاستشهاد له بشواهد نثرية أمثال " من عتب على الزمان طالت معتبتُه،ومن رضى عن الزمان طابت معيشته"،و" رأس المداراة ترك المماراة " وذلك لأن الجزءين "من هذه الفصول متوازنا الألفاظ والأبنية"[3] ينتبه إلى أن هذه الأمثلة مما يدخل في باب الازدواج ـ الذي خصه مع السجع بباب خاص قبل باب البديع فيقول:" وقد أوردت من هذا النوع في باب الازدواج ما فيه كفاية"[4] فيدق بذلك أول إسفين بقلب المصطلح الوليد "،وذلك بإدخال شواهده تحت باب الازدواج،وكان قد سبق له أيضا في باب "السجع والازدواج " أن ذكر أن من أنواع "السجع والازدواج" " أن تكون الأجزاء متعادلة،وتكون الفواصل على أحرف متقاربة المخارج إذا لم تكن من جنس واحد"[5]،فالمدار الأول إذن على "التعادل والتوازن "،وبذا يتقارب كثيرا مفهوما

---

١ الصناعتين:٤١١.
٢ علم البديع نشأته وتطوره، مصدر سابق: ٢٤١.
٣ الصناعتين:٤١١ .
٤ السابق : نفس الصفحة.
٥ السابق: ٢٦٣.

"التشطير"،و"الازدواج"،أما المدار الثاني والذي جازف بإضافته فهو قوله "مع قيام كل واحد منهما بنفسه،واستغنائه عن صاحبه"، وهذه عبارة واسعة يكاد يدخل تحتها شعر بلاحصر،ولنتأمل شواهده مثل:

قول ذي الرمة:

أستحدثَ الركب عن أشياعهم خبراً أم راجع القلبَ من أطرابه طربُ

لندخل في مثل ذلك شواهد لاحصر لها.

وربما بسبب اهتزاز هذا المصطلح والتباسه بالازدواج لم يكتسب تعريف العسكري له سيرورته بعده. وإذا كان اسم المصطلح قد بقي حيا في ذاكرة البلاغة، فذلك لأنه اتخذ مفهوما مختلفا وهو: مراوحة الشطرين في السجع،بحيث يحتوي الشطر الأول على سجعتين،والثاني أيضا على سجعتين،ولكنهما مخالفتان للسابقتين كما هو معناه عند القزويني الذي يدخله في باب السجع (ت ٧٣٩هـ)الذي يقول " ومن السجع على هذا القول ما يسمى بالتشطير،وهو أن يجعل كل من شطري البيت سجعة مخالفة لأختها،كقول أبي تمام:

تدبير معتصم باللّٰه،منتقم للّٰه،مرتغب في اللّٰه،مرتقب[1]

وهو ما نقله عنه صاحب تحرير التحبير،وصفي الدين الحلي(ت ٧٥٠هـ)[2]،أي أن المصطلح مارس تحولا لافتا،وإن بقيت ظلال من بعض تعريف العسكري للتشطير وهو قوله"أن يتوازن المصراعان،والجزءان،وتتعادل أقسامهما " لتمارس تأثيرها على مصطلحات البلاغيين من بعده،فها هو القزويني يذكر مصطلحا مقاربا للتشطير هو "الموازنة" التي هي عنده فرع من السجع، ويعرفها بالقول " وهي أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية[3]،كقوله تعالى ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (الغاشية: ١٥/١٦)،وهو المصطلح الذي ظل قلقا في كتب المتأخرين من البلاغيين فلم ينجُ من الالتباس والتداخل مع غيره ؛ فإذا كان ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) يؤثر استخدام مصطلح

١ الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت ، د.ت، ص ٤٠٥.
٢ شرح الكافية البديعية، صفي الدين الحلي، تحقيق د.نسيب نشاوي، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٨٩.
٣ الإيضاح، مصدر سابق:٤٠٦.

الموازنة ويمثل لها بالآية الكريمة ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (الصافات ١١٧/ ١١٨)فإن السكاكي (٦٢٦ هـ) يستشهد للترصيع بنفس الآية السابقة،والترصيع عنده ""أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان متفقة الأعجاز أو متقاربتها"[١]،والآية السابقة هي عين الشاهد الذي أورده القزويني فيما سماه "المماثلة"[٢].

وخلاصة القول: إن مصطلح التشطير لا يمكن أن يعد اختراعا خالصا للعسكري لتشابكه مع مصطلح "السجع والازدواج" من جهة، ولعدم سيرورته بالمفهوم الذي وضعه له من ناحية، ولكن التحول الذي مارسه المصطلح من بعده دلل على خصوبته وفاعليته.

ويمكن تتبع بقية المصطلحات التي زعم أنه أسسها على نفس المنوال،ولكن بعض البحوث البلاغية المتأخرة اختصرت الطريق على الدراسة،إذ كشفت أن مصطلح "المجاورة "يمد جذوره مباشرة بتربة"تعطّف " خاله،و"مطابق " قدامة،ويتحور فيما بعد إلى "ترديد " ابن رشيق[٣] ليختفي بهذا الاسم في كتب البلاغة اللاحقة،أما مصطلح " الاستشهاد والاحتجاج " فيتوزع بين أيدي البلاغيين إلى حسن التعليل،والتشبيه الضمني،والمذهب الكلامي[٤]،ومصطلح التلطف أدخل في حسن التعليل [٥]،وعليه لن يتبقى له خالصا سوى المشتق الذي يثير التباسا مع المصطلح الصرفي المعروف،ويدخل في باب الألغاز الكلامية، و التطريز الذي لم يسلم بعده من تحوير المتأخرين له،وإخراجه عن المعنى الذي وضعه له العسكري،لاسيما عند ابن أبي الإصبع الذي أفرغه من معناه عند العسكري،وعرفه تعريفا جديدا ومضى يستقرئ له الشواهد [٦].

بقراءة المقدمة مع المتن يمكن أن نجد أنفسنا أمام مسارين إذن:

---

١ مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف السكاكي، ضبطه وعلق عليه نعيم زرزور، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ص ٤٣١.
٢ الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٤٠٦.
٣ علم البديع نشأته وتطوره، مصدر سابق: انظر الصفحات ٢٤١، ٣٢٠.
٤ المصدر السابق: ٢٤٢.
٥ السابق:٢٤٦.
٦ انظر تحرير التحبير: مصدر سابق، ص ١٠٣/١٠٢

المسار الأول:

يقدم لنا أبا هلال بوصفه ناقلا عمن سبقه أمثال قدامة وابن المعتز والجاحظ،للدرجة التي وسمه بها بعض النقاد المعاصرين بأنه "من أقل النقاد العرب أصالة"[1]،و أنه "صورة عجيبة لعدم الاستقلال بأي رأي ذاتي "[2]، وهو مسار يكتفي في رأينا بقراءة ظاهر نصه ورصد ما اشترك فيه مع غيره،ولا يجتهد في اكتشاف طبيعة حوار متنه مع المتون السابقة له،كما أنه المسار الذي وقع ضحية "وعود" المقدمة بتقديم كتاب "أصيل" يستغني فيه القارئ عن غيره،وهي الوعود التي لا تلبث أن تفضي إلى خيبة الأمل متى ما قرئت المقدمة باعتبارها خطابا شفافا غايته "الكشف " عن "أصالة" النص الذي تقدمه و"تفرده" عن غيره من النصوص لاسيما نص الجاحظ،وضحية وعودها أيضا بتبني منهج منظم،فهذه الصرامة المنهجية التي تعد بها ما تلبث أن تؤول إلى صدفة فارغة في المتن،فباستثناء تقسيم الكتاب إلى أبواب وفصول،والاستغراق في التقسيم والتفريع في باب البديع ،فإن الصناعتين تتبنى منهجا نصيا منفتحا لا يبعد كثيرا عن منهج البيان والتبيين الذي انتقدته في مقدمتها،وتبنته في سائر المتن.

المسار الثاني:

يقدم لنا أباهلال بوصفه قارئا فعالا للنصوص النقدية التي سبقته،مارس عليها حرية واسعة في التحوير والتفريع، بعبارة أخرى: اشتغل على النصوص النقدية السابقة والمتزامنة باعتبارها حقلا خصبا لإنتاج المعنى،واستيلاد المصطلح وتحريكه واستنباته بأرض جديدة،وتوسيع مداه باستقراء الشواهد عليه،أوتفريع أصله بإنبات فروع أخرى على شجرته،وهو المسار الذي يبدأ بقراءة المقدمة بوصفها خطابا سجاليا يستبق القارئ بخطاب مهيمن متعال يمضي في النهاية في خط مضاد لمتن الكتاب،فإذا كانت المقدمة تتبنى دعاوي التميز عن النصوص السابقة دفاعا عن"أصالة"مزعومة تعلمنا مع باختين (١٨٩٥ ــ ١٩٧٥) أنه لا وجود لها لأن"كل نص يقع عند ملتقى عدد من النصوص،وهو بإزائها في نفس الوقت قراءة ثانية وإبراز وتكثيف ونقل وتعميق" ؛ فإن المتن ينخرط

---

١ علم البديع نشأته وتطوره، مصدر سابق: ٢١٦.
٢ السابق: ٢٤٨.

بتواضع ـ ولاسيما في الباب الذي اقتصرت عليه الدراسة ـ في حوار خصب فعال مع المتون التي سبقته يقلب أفكارها،ويزحزح مفاهيمها دون أي توهم بأنه يحرث في أرض بكر،مستثمرا في ذلك عددا من آليات الحوار مع النص الغائب كالنقل، والتكثيف، والتحوير، والتفريع،والتوسيع وغيرها.

وما تسترت عليه المقدمة في وعودها بـ"الأصالة" و"المنهجية " والانزياح عن كتاب الجاحظ كشفه المتن في تضاعيف نسجه عندما انخرط في تناص نقدي خصيب تتكون طبقاته من نصوص سابقة ومتزامنة لا تكف عن التحول والتسلسل داخله،حيث "ما يغيبه النص أو يتناساه بالدرجة الأولى هو نفسه بالذات،أي كينونته وبنيته أو سلطته ومفاعيله "[1]،وبعبارة أخرى: فإن النص إذ يغيّب أصله،أو يتستر عليه،أو يضمر عداءه إنما يقصي حينها وحشة عزلته لينغمر في دورة النصوص المتحولة، مؤسسا حينها لمقروئيته في فضاء التلقي المفتوح.

* * *

١هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، علي حرب، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥، ص ١٠٤.

نتائج البحث:

من أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

١. تضمر مقدمة العسكري ـ في التباسات المعرفي والأدبي ـ خطابا أيديولوجيا مرحَّلا إليها من قبل سلطة قيمية مجتمعية لها القدرة على تحديد اتجاهه.

٢. لا تقدم المقدمة نفسها بوصفها خطابا شفافا يتبرع بتقديم إجاباته الفورية عن أسئلة المتلقي المباشرة ؛ بقدر ما تخفي ـ متذرعة ببراءة معرفيتها ـ سجالية خطابها، وأيديولوجيته، وتستبق القارئ كخطاب يشتغل كإمكان للحجب، والمصادرة، والمناورة، والإقصاء.

٣. مثل الجاحظ مركز تهجُّس المقدمة، ونولها المستتر الذي نسجت عليه مقولاتها، ومثل النص الغائب الذي حاولت المقدمة طمسه وتغييبه.

٤. مارس متن النص في كتاب المقدمتين حرية واسعة في التعاطي مع المتون السابقة، والمتزامنة معه لاسيما متن قدامة بن جعفر "نقد الشعر" كما يتضح في "باب البديع"، وقد جرى حوار متن العسكري مع هذه المتون عبر ثلاث آليات هي النقل، والتوسع، والتأسيس.

٥. ما تستَّرتْ عليه المقدمة في وعودها بالأصالة والمنهجية والابتكار كشفه المتن في تضاعيف نسجه عندما انخرط بتواضع في تناص واسع مع غيره اغتنى فيه النص بحواره الخصب مع رصفائه: نقلا، وتكثيفا، وتحويرا، وتفريعا، واستقراء.

* * *

مراجع الدراسة :

١. القرآن الكريم.

٢. ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين: المثل السائر قدمه وحققه وعلق عليه د.أحمد الحوفي ود.بدوي طبانة، دار نهضة مصر بالفجالة، القاهرة، د.ت.

٣. أرحيلة، عباس: مقدمة الكتاب في التراث العربي وهاجس الإبداع ، موقع عباس أرحيلة بالشبكة الدولية للمعلومات: http://rhilaabas.jeeran.com .

٤. إيجلتون، تيري :مقدمة في نظرية الأدب، ترجمة أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ص٢٣٥/٢٣٦.

٥. بلعابد، عبد الحق:عتبات: جيرار جينيت من النص إلى المناص الدار العربية للعلوم ، الطبعة الأولى ، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٨ .

٦. الجابري، محمد عابد: بنية العقل العربي، الطبعة التاسعة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٩.

٧. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:

- البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون الطبعة السابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨.
- الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، ١٩٦٥.

٨. ابن جعفر، قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق وتعليق د.محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت.

٩. الحجمري،عبد الفتاح: عتبات النص البنية والدلالة منشورات الرابطة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٦.

١٠. حرب،علي: هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥.

١١. الحلي، صفي الدين عبد العزيز بن سرايا: شرح الكافية البديعية، تحقيق د.نسيب نشاوي، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢.

١٢. ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي: المقدمة، حققها وقدم لها وعلق عليها عبد السلام الشدادي، الطبعة الخامسة، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، ٢٠٠٥.

١٣. ابن رشيق، أبوعلي الحسن بن رشيق القيرواني العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨١ .

١٤.زايد، عبد الرازق أبو زيد: علم البديع: نشأته وتطوره من ابن المعتز حتى أسامة بن منقذ، المكتبة العلمية بالمنصورة، مصر، ١٩٨٧.

١٥. السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر : مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه نعيم زرزور، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

١٦.ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي : محمد بن سلام الجمحي، تطبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني. جدة، ١٩٨٠.

١٧. الصيداوي، يوسف: الكفاف، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩.

١٨. ضيف،شوقي: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، د.ت.

١٩.العسكري، أبوهلال الحسن بن عبد الله بن سهل:

- كتاب الصناعتين:الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة، ١٩٥٢.
- أسماء بقايا الأشياء على نسق حروف المعجم تحقيق ماجد الذهبي، مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت ، ١٩٩٣.
- جمهرة الأمثال، تحقيق د.أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٨٨.
- الأوائل، تحقيق وضبط وتعليق د.محمد السيد الوكيل، الطبعة الأولى، دار البشير للثقافة والعلوم الإنسانية، ١٩٨٧.
- ديوان المعاني، شرحه وضبط نصه أحمد حسن بسج، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤.

٢٠. عطوان، حسين عطوان: الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت، د.ت.

٢١. عكاوي، إنعام فوال: المعجم المفصل في علوم البلاغة، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦.

٢٢.ابن فارس، أبو الحسين أحمدبن فارس القزويني : معجم مقاييس اللغة ، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق،١٩٧٩.

٢٣. فوكو، ميشيل فوكو: نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، الطبعة الثانية، دار التنوير للطباعة والنشر، ٢٠٠٧.

٢٤.القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٢٥. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن عبد المكرم: لسان العرب، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤.

٢٦.وارهام، أحمد بلحاج: الخطاب المقدماتي في الدواوين الشعرية: ملاحظات أولية لمقاربة نطرية، موقع أواب الخاص بالناقد والشاعر وارهام: www.awabbelhaj.jeeran.com.

* * *